alexandra.ahlamontada.com

منتدى مكتبة الاسكندرية

رواية



نقرات الظباء

رواية

ميرال الطحاوي

نقرات الظباء

رواية

ميرال الطحاوي

فهرس

على صدري حطِّيت شهايد•

بلا موت يَا علَم

• شهايد: علامات توضع على القبور

١

كانت "هند" دائمًا صغيرةً وبجديلتين وأشرطة، رأيتها تجلس على ساق سيدة، زنجية شديدة السمرة، على رأسها عقدت منديلاً أبيض وتطرَّحت بالسواد، عليها ثوب قصيرة بوردات، وعلى خصرها حزام من الخرز الذي تضعه الغجريات وتحته سروال منتفخ بربطة على معصم الساق. قالوا إن اسم الخادمة "انشراح"، وكَانَت تقف إلى جوارها "سقاوة" الكبرى الممتلئة، و "سهلة" النحيلة حتى الآن، كانت "سهلة" هي التي أعرفها تمامًا والتي تعرفني منذ كنت في الأقمطة وهم يبحثون عن امرأة تلقمني صدرها.

"النجدية" لم تكن في الصورة، كانت حاضرة خلف الإطار، ربما كانت تعد القهوة على طاولة القاعة الكبيرة، حيث تراصت قدور نحاسية عديدة، وانكفأت إحدى الخادمات لتلميعها، أو كانت تفترش الأرض وسط مجلسها في البلكون المطل على أشجار توت ضخمة ومزيَرة وبعض غرسات البرتقال التي كانت تخلق في الربيع ذلك الدويِّ لنحلات صغيرة.

تجول هند وهي ممسكة بهذا "الكشكول" الذي تدوِّن فيه أسرارها التي لم يعرفها أحد، وإذا دخلت إلى الممشى، فستجلس على جزع شجرة المانجو الهندي التي يبدءون في قطافها أولاً؛ لأنها تنضج قبل الأخرى، أو تقرفص على غابة من أشجار الجوافة التي في آخر الدغل. هناك ستراه ممسكًا بصدر "فرحانة" الخادمة التي تتقافز كقردة فوق التراب، ويتأرجح لهاث صدرها وسط الخرزات التي تنفلت من عقدها، بعد ذلك ستحكي خادمة أخرى اسمها "روضة" سمراء أيضًا ولها زعرورتان من شعر ملبَّد جَعِد. إنه كان ينتظرها أسفل التلة حيث تعود بالبهائم في المساء ممسكة بمقود المهرات الصغيرات الثلاث. تعرف "هند" أنهم إذا أطفئوا "الكلوب" وانتهوا من حكي الحواديت وتسربت أخواتها إلى فراشهن تاركات الخادمات في قاعة الطبخ يعدلن من وسائد القش تحت رؤوسهن، سيحكين عنه. تقول "روضة" أيضًا "إنه بلغ، والأولاد في هذه السن يصبحون كالطلائق أو ذكور الجمال إذا هاجت"، وستضحك "انشراح" التي تقول : "يكفيه فاطمة القرومية" وستحاول "هند" التي تتلصص على بقايا الحكي أن تفهم كيف

يمكنه ذلك، وهو الولد النحيل الذي تراه في الأعياد صَغيرًا يقبّل يد "النجدية" ويقول لها يا "حنى" بدلاً من يا "آنا" كما يقول الأتراك، وهي تربت على رأسه وتُصِرٌّ في يده قِرْشًا أحمر.

هند التي لم أرها في غير هذه الصورة التي كانوا يقفون أمامها في غرفة الصالون التي امتلأت حوائطها بالصور الباهتة، لم يكن لها صورة عرس، كانت فقط منزوية على حجر خادمتها "انشراح"، صغيرة وبجدائل، يقفون أمامها؛ ويرددون تلك الكلمة "مسكينة"، وقد صاروا لا يتكلمون عنها؛ لأنها بدت بعيدة وخارج كل ما يخصهم، قالت الجدة "النجدية" تلك الكلمة ، ثم أكملت أنها لما رأتها آخر مرة كان شعرها كثيف البياض، وجسدها شديد النحول، رأتهم وهم يسكبون الماء على جسدها قبل أن يلفّوها بالكفن، بعدها ينثرون العطور وينصرفون، دون أن يصرخوا أو يبكوا أو حتى يلبسوا ثياب الحداد، كانوا قد أعلنوا عن موتها قبل ذلك بكثير من يوم أن أدخلوها هذا البيت وأغلقوا النوافذ والأبواب، وانسحبوا غير منتبهين إلى صراخها، وقالوا : "مسكينة" ثم تحاشوا ذكر اسمها؟ رجعوا سريعًا إلى بيوتهم،

لكن "هند" منذ ذلك الحين تأتي إليهم. أول مرة شاهدوها وهي تركض في الفناء، كانت مهرة ناعسة على حجـر النجديـة، وهي تحكي لها حكاية "السُّهى" تلك الظبية التي ركضت فـي السماء، ولأنها تركت وليدا صغيرًا على الرمـال لا يعـرف كيف يهرب من صيَّاده، تركت له نقراتها المضـيئة نجومًـا تتنبأ بمواضع الخطر، تفرد "النجدية" أصابعها محددة ساعات النحس حين يهل الهلال والسهى عن يساره، وأيام الزعابيب حين يصير القمر بدرا، والشعري اليمانية جنوبًا والسُّهى في القلب، هكذا تؤرِّخ "النجدية" لأيام الضيق وأيام الفَرَج.

نظرت باتجاه "هند" التي ركضت أمامهم صبية صغيرة بضفائر في هيئة قطة، فالتفتت "النجدية" إلى "سهلة" الجالسة جوارها، ثم قالت "يا بنت يا سهلة.. البطن هي التي تكب وليس القلب يا نضري" ، "سهلة" التي أسندت جسدها على عمود التراس أنامت رأس الصغيرة على حجرها، وبدأت في تقليب شعرها بأصابعها، وأعادت تضفيره، وهي ترتِّل الرقى والتعاويذ، لكن هند صارت تأتي أكثر، تتلحس أقدام مهرة؛ فتستيقظ وتضمها إلى صدرها، لتعرف كيف تنام وسط شخيرها، تنبش في السجادة، حتى تجتر خيوطها بمخالبها،

وحين صارت تقول ذلك لهم كانوا يربتون على كتفها ويقولون إنها مجرد هواجس، صارت تبكي أكثر متأكدة أن ثمة فضاء أبيض تسير فيه عارية، وهند تطير حولها كفراشة، وقد تضحك أو تسخر منها، وكانت متأكدة أن الكلاب إذا نبحت فقد رأوها مثلها حتى لو كانت في هيئة فراشة أو طيرة أو قطة تلحس في قدمها كانت تأتي إلى كثيرين مثلها، هي التي قبَّلت "سقاوة" في فمها لترحل، وهي التي رأتها "النجدية" تُحكِم عليها الغطاء قبل أن يسبِّلوا عينيها ويقولون الله يرحم الجميع.

٢

لا تعرف من أسماها بهذا الاسم "سهلة" في الميرديديه، حيث أخذتهن الجدة النجدية ثلاثتهن وأسلمتهن لمدموزايل "آنيتا" أطلقوا عليها اسم "روز" ظلت ثماني سنوات بهذا الاسم، حتى أتى "لملوم باشا الباسل" ليقبِّل صغيراته في آخر الحفلات المدرسية ويجمع حقائبهن ليعدن حيث تجلس "النجدية" على البساط في البلكون، فمازال لهن على ضفة خليج منازع أو إقطاع البدوان أرض ومرابط خيل وبيت من الشَّعر• في فناء تحيط به حدائق المانجو والبرتقال من كل اتجاه، كانت "هند" من بينهن هي التي تعرف كيف ترتدي السراويل الضيقة، وتضع على رأسها قبعات القش ذات الوردات، ولها صورة كبيرة وهي تلعب في الإسطبل برفقة فتاة سمراء من العبيد الذين يسمونهم هناك أسيادًا أكثر ثراءً فيشحنهم "مبارك العبد" ليعملوا في تلك الأرض البعيدة التي يخرج منها النفط حيث يجيدون – كما هم دائمًا – سلخ الضأن وغلي القهوة بالحبَّهان والهيل وتدليك السيقان بالماء

• خيمة بدوية من شعر الضأن.

الدافئ والريحان الأخضر، هم بارعون فـــي وقــد النيـــران ويعرفون كثيرًا عن الصقور والشـــواهين، كتنظيـــف ســـاق الطيرة حتى لا تصاب بالبثور، ومكافـــأة المهـــرات بقطـــع السكر، وترويض الكلاب السلوقي، كانوا بارعين تمامًا فـــي تلك الأعمال طالما أن الأسياد بارعون أيضًا في أن يظلـــوا على سيادتهم، ولا يتهدل لعابهم على أصداغهم وهم يحكـــون عن أمجادهم بصيغ التذكُّر أو التحسر على ما كان.

الأميرة "مهرة" بنت آل الشافعي، كما كـــانوا يلقبونهـــا، تسكن الآن بيت "النجدية" مثلما سكنته هند وســـقاوة وســـهلة ويجلس أبوها أمام بيت الشَّعْر يتوسَّد ســـاق العمـــة "مِزْنَـــة" ويقول لها "يا مزون الله يرحم والديك كـــان جـــدك الكبيـــر "الشَّافعي" يطوف بالقبائل من سنار إلى قوص وقفط فعيـــذاب دون أن يجرؤ أحد على حثِّ الرمال في وجـــوه جمالـــه.." العمة مزنة التي بقيت له من أخواته الكثيرات كانـــت تـــأتي على حمارة بخرجين تُعَبِّئ له فيهما القديد واللبن الخضـــيض وجميد الجبن المالح لسفراته الطويلة، هي التي علمتها كيـــف تقرفص ساقيها على البساط، وغزلت "لمهرته" عرائس مـــن وبر الضأن ورقَّعتها بالأحجبة وحملتها على ســـاقيها كثيـــرًا

وهي تكركر مقلّدة ركض الجمال وتهنهن "ما انك للي يصيد عويل ولانك ثوبة* للرعيان" لتؤكد لها دائمًا أنها "ابنة عرب" وأنها فرسة أصيلة، فالجد الأكبر "الشافعي السُّليْمي" كان كريمًا أكرم من حاتم الذي يحكون عنه في الحواديت، وكان فارسًا يركض حول ربوة يسمونها "العالية" قالوا إن بها إحدى زوجاته التي أطلق عليها الخرطوش، لأنها قررت هجره، وأنه مجنون تمامًا.

كان بصحن داره الواسع عدة نخلات يجلس تحتها وحينما يمر الناس من على بابه فعلى كل من يركب دابة أن يترجَّل عنها، وأن ينظر في الأرض حينما يمر، وأنه جلد كثيرًا من "الغرابوة" على هذه النخلات، لأنهم همج ولا يعرفون تلك الأصول، كما أنه كان يوقد ناره قبل أن تدخل الكهرباء إلى أرضنا، ثم يركب فرسه ويمر على الأبواب ويسألهم "نار من هذه يا ولد؟!" وكان نصيب من يجهل نار آل الشافعي أن يجلده على تلك النخلات، ويعود ليتصدَّر مجلسه وهو يلعن الزمن الذي لم يعد يعرف للرجل أصل من فصل، وكان الكثير من الصبية يعتقدون أنه

* ما أنت صيدة سهلة، ولا غنيمة يغنمها الرعيان.

مجنون؛ فمازال يتصور أن نيرانه هي التـــي تبحــث عنهـــا القوافل المتعبة ليقريها، بينما كانت العربات التي تجري على الطريق المسفلت تمضي من أمامه طوال الوقت، هذا الجــد الذي أورث أبي شَعْره وعدد مــن كــلاب ســلوقي وعــدة للملفاف• وبعض الفدادين التي قسَّمها بين أولاده الكثيرين كان حريصًا على أن يجد أحدًا من أولاده يتصدر مجلســه مــن بعده، وكان أبي يعرف كيف يفعل ذلك، رغم أنه تلقى تعليمه في فيكتوريا كولج، وكاد أن ينال ليسانس الأدب الإنجليزي، لكنه كان متيمًا بتلك الجلسة حول النار التي تتــرك رمادهــا يسف في الحلوق، فقد كان يقضي معظــم وقتــه فــي تلــك الجلسة. كان هناك إلى جانبه "ســرور" و "مبــارك العبــد" وكثيرون يجدون متعة في تدخين بعــض الأشــياء النفــاذة، وشرب القهوة المذاب فيها الأفيون ومضغ بضع الحكايــات عن أحد أفراد الأسرة خصوصًا الجد الأكبر ورحلات قنصه في أرض الهيش والمالح. أو الجد للأم منازع ورحلاته إلــى أرض السبخ والسودان، كان مع ذلك يتحدث بطلاقة ويحفــظ

• صيد الطيور الجارحة.

أشعار جوته، وهو الذي درَّس لي روايات شكسبير بإنجليزية متميزة وصوت متزن ممسرح كان يبهر كل خلجاتها.

لكنه لم يوافق على الإطلاق – رغم ثقافته – على المدارس الداخلية. وقال لها إنها أفسدت عقل أمك وخالاتك، هو الذي اقترح تلك الفكرة المضحكة أن تذهب إلى مدرسة رَبْع منازع الابتدائية محمولة على كتف عبدة سمراء لأحد أبناء "مبارك العبد" كان اسمها "نوار"، كانت تضعها في المقعد الأول من الصف بعد التنبيه بألا يجلس أحد جوارها، معظم مدرسي المدرسة التي كانوا يعرفون أن عليها اسم جدها كانوا مقدرين رغبة أمها بنت لملوم باشا الباسل ألا تتعلم أشياء مخلة، خصوصًا أن كل من حولها هم مجرد فلاحين، تعرف العمة "مزنة، بالتفصيل كيف تقول "حبايبنا وطول عمرهم خدامينا" تقول كلمة خدامينا بتواضع وكأنه شرف كانوا محظوظين به، بعض المدرسين الجدد كانوا ينظرون إلى "نوار" التي تجلس على باب الفصل في انتظار حملها بتطفل وأحياناً باستغراب، بل وتجرَّأ أحدهم وأنزلها ذات مرة من شباك الفصل الذي كانت تمدد عليه ساقيها وتهزهما منخرطة في غناء "عايش في عزه ودلاله، من كتر

نياقه وجماله وعنده عزوه من رجاله ما فـــيهم واحـــد دلال•" حين جذبها من ذراعها، وهو يقول "فاكرة نفسك في عزبـــة أبوكِ" أبوها الذي قال له إنها عزبة أبيها وجـــدها وإن تلـــك الأرض كانت لهم منذ كانت حمراية تسف الرمال لا يجـــرؤ على المرور بها عفريت النهار، وأنهم كانوا أسياده حين كان آباؤه يأكلون الخراء في تلك القرى الحقيرة التي كانت تفتـــك بها المجاعات والتيفوس ولا يتسع النهر لجثث أمثاله، بينمـــا كان جده "منازع" هذا الذي اسمه علـــى المدرســـة يـــركض بفرسه من المشرق إلى المغرب ويخط معـــالم هـــذه الأرض المقفرة، المدرس الذي بدا غير متفهم، نصحه بعض أصدقائه بالاعتذار لأنهم "عرب" وطباعهم صعبة، وقـــد يفعلـــون أي شيء إذا جرح أحد كرامتهم، لم يقتنع تمامًا بما قيل فاحترقت ذات مساء تلك المدرسة الابتدائية التعسة وكان الأب يجلـــس في مضيفته سعيدًا وراضيا يحتسي مزيدًا من مغلي القهـــوة ويقلب في الرماد. مشكلة المقعد الأول في الفصل تـــم حلهـــا بهذا الحريق حيث افترش الجميع الفناء الرملي بـــلا مقاعـــد

• أهزوجة تتحدث عن الأصل الطيب في كثرة الولـــد وكثـــرة النـــوق والجمال.

ولا كراسي، وأيضا كلَّت "نوار" من حملها بعــد أن تعلمــت الركض ذهابًا وإيابًا خصوصًا أن المدرسة كانت تجاور سور البيت وتقابل بيوت آخرين قيل لها إنهم أعمامها.

كان الأب كريمًا أيضًا على طريقته فقد قرر أن يجلـــس في المضْيَفَة ويشعل النار ويسلخ الضأن، يلتف حوله سرور ومبارك وبعض المتحمسين من الشباب يتحدثون دائمًا حـــول المشروعات الحضارية التي تحافظ على مكانة العائلة، كـــان كريمًا للغاية يبيع القراريط من أفدنته بما يتســـير لشـــاريها، وكان أكثر هؤلاء ممن يطلق عليهم الغرابوه والبراموه، وهم من أطراف الغربية من منطقة تدعى "برما" ربما يشتهر أهلها بتربية الدواجن وبيع البيض، فقد كان معظم هـــؤلاء، نســـاء قصيرات بيضاوات يحملن أقفاصًا فوق رؤوسهن ويجلســـن أمام المضيفة ويقلن "يا شيخ العرب" بلكنة مضحكة، يفـــتحن على إثرها مناديل رصصن فيها نقودًا ورقية متسخة يتعـــبن في عدِّها قبل أن يتفقوا على أقساط طويلة لم تمكنه من إقامة مشروعه كما خطط له، وكان قد قرر أن يملأ (بالســـلالات النقية) المرابط الخالية التي بقيت ملاصقة للدوار وهي مداود فارغة نصفها متهدم، وأن يبني بدلا منها مزرعة تليق بتاريخ

العائلة، سيبيع مزيدًا من القراريط ليشتري ســلالات أكثــر أصالة، وسيجلس جانب العمة "مِزْنَة" التي تهز شنافها موافقة وهو يختار أسماء جياده ويقول لها "يا مزون جدك الشــافعي كانت فرسته اسمها "زاد المركب" كانت شقراء بلون صــفار الغلة في الحقول، وكان جدك منازع يقول لو جمعــت خيــل العرب في صعيد وأرسلت واحدًا لكان سابقها أشقر.. الشقرا أصبر يا بنت والدي" العمة "مزنة" ستقول له "إن مهرة جدك منازع كان اسمها الزعفرانة كانت صغيرة وهي تلعب أمــام بيوت الشَّعْر، وكانوا يقولون الزعفرانة في سواد الليل غراء محجلة لكن نسلها قليل"، وسيقضون وقتًا أطول وهم يتجادلون حول الشقراء والدهماء، وسيقضي الأب وقتًا أطــول وهــو يطوف مع سرور في العربة (الجيب) اللاندروفر يبحث فــي ديار قبائل الحويطات وهوارة وجهينة عن مهــرات تصــلح لحمل نتاج نقي، ويقف أمام كل جواد يبحث عن أنفه الــذي يجب أن يكون متسعًا، ويتحرى عن طــول العنــق وعظــم الفخذين وطول القوائم، ويؤكد أن المهــر العربــي صــغير الرأس أكحل العينين، مصرًا على أن يختبر خارطة الأنساب، وأن يتحقق من ذلك بطول العنق، فالفرس الأصــيل يشــرب

دون أن يثني قوائمه، والمهجن يبرك ليطول الماء وبعد عدة رحلات فشل في اكتشاف خريطة الأنساب هــذه، وأدرك أن الكثير من الأنساب قد اختلطت، وسـلم واقتنـع أن شـجرة أنساب المهرة ليست ضرورية، بإمكانه أن يتزود بالفراسـة، ويتكهن بأصالة مشترواته بمجرد النظر، فأعاد التشاور مـع العمة "مزنة" حول الكُمَيْت والدهُّمْة والشؤم مـن المهـاري، حيث تربعت العمة معلنة أن "الأصبح" الذي في لون الضحى كثير، وأن "الكميت" الضارب إلى الحمـرة لا يـأتي بنتـاج ضخم، وأن عليه أن يبتعد بعد ذلك عن قصر الظهر ويتأكـد من طول البطن وتناسق الأعضاء، بعد أن جلب عدة مهاري وأجيرا يسوسها، وتبادل أحاديث طويلة مع كركرة النرجيلـة المسائية حول أسمائها "عقاب" و "السمي" و "جناح" و "البلقاء" حيث قلَّب كثيرًا بين دفاتر أجداده حول تلك المقولات التـي كان يحاول أن تصل أسماع (سهلة بنت منازع) وهي جالسة في شرفتها كقولهم "إنا لنؤثر الجياد على الأولاد". (وعلـيكم بالخيل فإنها حصون العرب)".

"سهلة" التي كانت مشغولة بالنسوة اللاتي لا يكففن عـن عدِّ النقود الورقية والحديث عن القيراط الفلانـي والقيـراط

العلاني لم تعلِّق، كانت تتركه يشارك العمـــة "مزنـــة" بيــت الشَّعْر وغلي القهوة نهارا، وكركرة الدخان فـــي المضـــيفة مساء، رضيت بتفقد بَضْعة أبيها من المهاري صامتة مكتفية بترفُّعها الذي صار يُرى بوضوح يشـــبه تأملهـــا لأصـــابعه المرتعشة وهو يصب لها قهوتها في الصباح ويقـــول ربمـــا مواسيا بيتا ظل يردده حتى حفظتـــه دون أن تـــدرك مهـــرة معناه..

قد يعسرُ المرءُ حينا وهو ذو كرم

وقد يسوم سوام العجز والحمقِ

سيكْثر المالُ يوما بعد قِلَّتِه

ويكتسي العود بعد اليبس بالورقِ

تهز "سهلة" رأسها باقتناع أنه لا شيء يصلح معه، بعـــد ذلك صار البيت الذي يستقبل وفود "سرور" و "مبارك العبْد" من العرب والخليجيين. سعوديين وكوايتة، يتطلب ذبح مزيد من الشياه وتلميع غرفة الصالون؛ ليتاح لهم تأمل صورة الجد "منازع" وهو يعلق خرطوشه على كتفه في رحلـــة قـــنص، أو تفقد برواز به عقد إقطاع لشـــبه جزيـــرة ســـيناء للجـــد محجوب الكبير، وصورة للملك "سعود" مع مشـــايخ عربـــان

القطر المصري، ودائرة حمراء حول رأس الجـد الشـافعي رافعًا جبهته بفخار وسط الصورة، صورة لهذا الجـد أو ذاك وهو يهنّئ مولانا بولي العهد أو عيد الجلوس.. يحب أبي أن يتحدث عن مهاريه كثيرًا ويؤكد أن "الصهباء" أصيلة، وأنـه تعب كثيرًا في مسألة الأنساب هذه، لكنها بالنسبة للعـائلات الأصيلة مسألة محسومة، قد يحكي قصة ارتباطه بأمها "سهلة بنت لملوم باشا منازع" التي كانت له حتى لو لم يطلبها ولن يتحدث عن "هند"، سيقول فقط إن ابن العم ينزلها من هـودج عرسها بكلمة، سيهزون رؤوسهم وهو يؤكد "ترميها للتمساح ولا يأخذها الفلاح" حاكيا قصة الجد محجوب الذي ألقى ابنته في النهر، سيقول خطبها عباس الأول، سينسى اسمها ويقول إنها كانت مثل الجارية الشريفة بيضاء ولها رقبة ناقة وأنهـا كانت بنت عرب ولا تقبل مثل هذا التركي الأحمر حتى ولو كان ابن الذات العلية، سيضطره ترديده مزيد من الحكايـات لإيقاد النار تلو النار، والقهوة بعد القهوة، وذبح شياه جديـدة واستدعاء "سرور" و "مبارك" و "نوار" من بيوتهم ليقول إنهم عبيد عيلة منازع، بعد ذلك يستخرج بكارج القهوة الملطخـة بالجنزار النحاسي في الصوان لتلميعها، والإصـرار علـى

نصب بيت الشَّعر في قلب الفناء، وعادة ما تنتهي هذه الجلسات باستدعاء امرأة من نساء "البراموة" لتعطي أبي عدة جنيهات هي حصيلة اتفاقاته الأخيرة على بيع القيراط هذا أو ذاك.

بالنسبة لمهرة لم يحسم مسألة وجودها على الرمال في فناء المدرسة غير تجديدها، أو إعادة بنائها بعد شراء الأرض المقامة بجانبها من أحد أعمامها لتوسيعها، وبعد كل الإجراءات أزالوا اللافتة القديمة ووضعوا محلها (مدرسة رفعت عبد الحي الابتدائية الحديثة)، لم يعرف أبوها الذي رفع العديد من المذكرات إلى إدارة التربية والتعليم منددا بالاستهانة بالتراث والأنساب، وتشويه الوقائع التاريخية والتساؤل أين كان هذا "العبد الحي" حين كانت كل هذه الأرض إقطاعًا من الرمل الجاف توارثه أولاد محجوب الكبير، وحين قالوا له إنه كان قائد الحرس الخامس ورجلا من رجالات الثورة عاد إلى البيت وتَرَسَ ظهره إلى حائط المضيفة ولم يتكلم، ظل يخط بعود جاف في الرمال بيد مرتعشة.

أمها هي التي أصرت على مغـــادرة المدرســـة نهائيـــا، حزمت الحقائب وقررت مغادرة البلدة إلى بيتها الذي ورثتـــه على منيل الروضة، ذلك البيت القـــديم ذو النوافـــذ العاليـــة لعمارات الثلاثينيات، تركت للأب مراقبة سباق المهرات في فناء دُوَّارهم، وتركت للعمة "مزنة" فرصة تجريب وصـــفاتها في الحجامة وتصليب القوائم وتهدئة المهاري الحارنة بتدليك أنفها بدهن الورد، وتبادل المزيد من الحكايات حول النتـــاج والتلقيح وفطام "الحولي"، أو الصغير من الجياد.

٣

جدها لأبيها الذي علقوا صورته على أول الحائط كـــان يدعى "الشافعي" ستقول مهرة: جاءوا من مضارب بني سليم، عندما حج أبي وجد من يحدثه عن تلك المضارب وقيل لــه إنهم أصحاب سلالة "الأعوج" من الجياد، والأعــوج فــرس صغير كانت قائمتاه شديدتيْ الطول، وكان يثنيهما في نومته لعظم طولهما ، عندما عاد أبي ومعه كومــة مــن المســابح ليوزعها في مجلسه في المضيفة، وهم يقولون له "يا حـــاج" كان يعدل من وضع عباءته ويقول:

"ليس في العرب فَحْلٌ أشــهر اســمًا ولا أكثــر نســلاً ولا أنجب نجلاً ولا أجرى في أشعارهم منه" يقولـــون مــن يا شيخ العرب؟!

يبتسم بحبور ويقول: الأعوج فرس بني سليم. استولدوه لفرس النعمان بن المنذر الذي كان اسمه "اليَحْمُوم" وأمه من مهرة ركبها رسول الله في بدر يقال لها "السَــمَى"، يهــزون رؤوسهم ويتفقدون مربطنا الخالي بعيونهم، ويتحدثون عــن

إحياء التراث البدوي بعقد صابية• كبيرة تتسابق فيها المهاري وتتبعها كلاب السلوقي.

وعندما تاهت بنا عربة أبي في أول مرة نجـرِّب فيهـا مصيف "مطروح"، نزل أبي من العربة أمام مضارب بعض البدوان. كان جالسًا أمامها كهل يصحن البن، بعد أن افترش أبي المجلس وقال له متقربًا إنه سليمي من بني سليم شـقيق هلال، حكى له الشيخ أن بني سليم كانوا هنا بمريوط، وتلـك الأصقاع القريبة بعد أن عادوا من الجبل الأخضر، وأن بني هلال طاردوهم حتى عبروا النهر وشرَّقوا، ثم أجلاهم محمد علي إلى الجنوب، فكفى أبي قهوته وظـل يصـحِّح واقعـة الهجج هذه من الغرب إلى الشرق إلى الجنوب، وانتهى بـه الأمر أن أخرج مسدسه من جرابه وقال إن بني هلال "بعـر المطايا" كانوا يتسولون من بلد إلى بلد، ولولا سيف بني سليم ما جرؤوا أن يُغرِّبوا ولا استطاعوا أن يقفوا للزناتي خليفـة. وظلت المعركة قائمة أكثر من ساعتين بين سيلم وهلال على شَفَتَيْ أبي، وذلك الشيخ الذي هشَّنا كما يهش أغنامه، وكانت النتيجة أن ظللنا لأكثر من ثلاث سـاعات نـدور بالعربـة

• الصابية: ساحة سباق الخيل أو الرقص

ولا نعرف كيف نخرج من تلك الأرض الهيش المفخَّخة بملاحات واسعة، ونباتات برية، وأحراش، بعدها صحراء قاحلة، لم يخرجنا منها سوى بعض الرعيان عثرنا عليهم أخيرا، بعدها قرر أبي عبور الجبل الأخضر بعربة "فولكس واجن" ليقابل الكثيرين الذين حدَّثوه عن سليم وهلال ونزاعهما الطويل حول بئر يقال لها "بئر هديوه"، أبي الذي انشغل طوال الرحلة بتقصِّي أخبار هذا النزاع، عاد جامعًا أشعارًا كثيرة أطلق عليها "ديوان الشعر النبطي في أقوال شاعر بني سليم في واقعة الإفك المبين".

جدي الذي علقت أمي صورته بجانب الصورة الأولى ولكن بإطار أكثر فخامة كان أخا لجدي الأول ولكني كثيرًا ما شهدت معارك حامية بين الإطارين، فأمي تعتز بأن أباها قد أخذ الباشوية بينما ظل جدي لأبي راعيا للجمال بكعبين مشقَّقَيْن يسكن بيت الشَّعر ويوقد ناره راكضًا بكلابه السلوقي سائلاً الرائح والغادي "نار من هذه يا ولد؟!"، ولم تحو تركته نظارة سَبَق مكبَّرة، ولا على ساعة من الذهب بسلسلة إيطالي من جاتينيو.

جدي لأمي كان يجلس في تراس بيته الذي بناه بـــالآجر وسقفه بالخشب والمرائن وطوّقــه بأدغــال مــن الزهــور والأشجار وأبراج الحمام، وحف ممشاه بأشجار البوانســيانا والجازورينا كان اسمه "لملوم" ولا أعرف لماذا يضيفون لقب "الباسل" ليقترن دائمًا باسمه قبل أن يسبقه لقب "الباشا" ويذيّل بأنه "آل منازع".

كان لملوم باشا منازع يجلس دائمًا فـــي تلـــك الشـــرفة، ويدخن أرجيلته وتحت قدميه يجلس على البساط شيخ كبيـــر يدعى "أبو شريك العيادي" كان دليلاً لقوافل منازع الكبيـــر، ومعه يجلس رجل آخر يسمى "مبارك العبد" يقال إنـــه مـــن عبيد عيلة منازع، في غرفة الاستقبال كانـــت هنـــاك تلـــك الصورة التي ظَلَلْتُ أحدق فيها، ثلاث فتيات بشرائط ملونـــة، بزي مدرسي موحَّد، وكان هناك ولد يقف منفـــردا يـــداعب عرف مهرة صغيرة في صورة أخرى، وكانـــت "النجديـــة" تجلس في البهو على سجادة كبيرة وتربـــع ســـاقيها وســـط الوسائد وتنادي على خادمة صغيرة لتناولها علبة الدواء، التي كان بها مرآة كبيرة، وقلم تخط به حواجبها وزجاجة عطـــر سماوية زرقاء كنت أجمع فوارغها. كان اســـمها "لســـوار"،

تلوك النجدية في فمها دائمًا اللبان المر والمستكة وبضع حبات من القرنفل ومن تحت غطاء رأسها كان شعر ناعم له لون الحناء يغطي طرف حاجبها ممسوكا بمحبس أسفل جفنها.

يتابع الباشا باهتمام كبير النشرات عبر المذياع كانوا يتحدثون عن التصحيح الثوري والإصلاح الزراعي. كان ذلك قبل أن يدخل من البوابة، ثلاثين رجلاً قال أبو شريك "غرابوه" لينقضُّوا على حدائق العنب والتمر البغدادي وأشجار السرو والحور والكستناء التي جلبها من سفراته، وليركضوا خلف الطواويس الملونة والغزالات في الحظائر وامتطى أحدهم ظهر الزرافة التي كان الباشا قد جلبها من إحدى رحلاته في دارفور. كانت الغرفة المسيَّجة بالسلك والتي تحرسها الكلاب قد نهبت تمامًا قبل أن يفيق "مبارك العبد" ويطلق من خرطوشه بضع رصاصات طائشة، أبو شريك ظل يطارد الصبية بعصاه ويركض وراءهم وهم يقتحمون مشتل الورد النادر، وعبقات الياسمين قبل أن يجلس جوار الحائط يولول "الناس اللي تنفع وتضر، غابوا وراحوا يا دنيا وين" ويحلف برأس الجد منازع الذي كان يخيف

الضواري في أرض الهيش أنه سيؤدب الغرابوه الفلاحـــين، دود الأرض. الباشا الذي كان قد نظم كـــل شـــيء ليصـــلح لاستقبال مولانا إذا رغب في الخروج للقنص، وليصلح لحياة ابنة من بناته كأميرة مثل ابنته "سهلة" التي هي أمي. كان قد دخل وأغلق "الأبواب بإحكام وأمام صورة الجد منازع جلس يتأمل خريطة الإقطاع الممتد على حواف النهر الذي وهبـــه مولانا للقبيلة، كي يؤمِّنوا سير القوافل من بركة الحاج على أطراف القاهرة حتى غزة شمالا أو القصير والقلزم جنوبـــا من بعض القبائل التي تنتهب كل من يمر بالقرب مـــن وادي القباب على أطراف جبل الطور، فرمـــان وكالـــة حراســـة القوافل النيلية مازال على جدار غرفة الصالون الفخم الـــذي استقبل فيه سعد باشا، ومولانا المعظَّـــم، والبـــارون إمبـــان، والأمير عبد المحسن، والأمير فيصـــل آل ســـعود، حيـــث تدارسوا صلات النسب القوية بين قبائل "شُمَّر" وقبائل عنزه، وقبائل بني سليم، كانت هناك صور كثيرة تغمر الجـــدران، ظلت صورة هند وهي على فَخْذَيْ مربيتها وحولهـــا ســـهلة وسقاوة، تجاور صورة أو لوحة ضخمة لرسام قالوا هولندي وأحيانا فرنسي كان اسمه "بييركام" رسم جلسة سمر بدويـــة،

ترقص فيها الحجالة مغطية وجهها ببرقع، وصف من الرجال يصفقون لها، وهوادج على جمال قافلة تبدو خلف الصفوف بعيدة، بجانبها صورة الولد الذي يدلل مهرته هذا الولد كان اسمه "نافذ" صار ذلك الخال البعيد الذي أرسله الجد لملوم ليتلقى علوم المحاماة في باريس، لكنه أرسل إليهم صورة عرسه من كاليفورنيا أو نيوجرسي مع بطاقات التهنئة، وصورة لزوجته اللبنانية التي افتتح معها محطة للبنزين بعد أن تقاضى بتوكيل بيع كل ما ورثه، وكل عدة سنوات يرسل إلى أمي بعض الصور، كان آخرها لابنته التي اسمها "صوفي" محدثا أمي عن أنه يناديها "هند" لأن المرحومة تأتيه كثيرًا وأنه لا يستطيع أن ينسى أنه تسبب في كل ذلك. أمي التي اكتفت بالصمت لم تعلق على أسئلتي عند تلك الجملة الأخيرة، أطبقت الرسائل وتنهدت وبقيت "هند" تأتيني لتداعب شعري وتموء.

في البيت ذي النوافذ العالية الذي تمر عليه المراكب كان الزجاج الأغبش يكشف النهر من جانب ويكشف شارعا ضيقا مليئا بالمحلات والضوضاء، هنا ستكبر امرأة صغيرة وتحاول أن تحب وستجلس بجانبها أمها في الفراندة وتراقب

حركة القوارب وتحت قدميها خادمة صغيرة تلمِّع الصور التي رفعتها عن الحوائط القديمة، وتسمح لشرودها أن يحط على التابلوه الغامض لوجوه ملثَّمة وَصَفْق رتيب يخرج من الإطار ليتغنَّى بمحاسن المرأة المنتقبة التي تروح وتجيء أمام الرجال كأنها طيف، وحين تفيق من شرودها أمام اللوحة ستتحدث عن بيع حديقة الموالح السنوي وأسعار المانجو والبرتقال، كان الذي بقى لها من لملوم باشا ذلك البيت، بيت النجدية، وحديقة واسعة وعدة قضايا مع الإصلاح الزراعي، فالأرض التي تم تقسيمها على الفلاحين بعد تلك الغارة على بيتهم تحولت إلى مستعمرة كبيرة يقطنها أكثر من مائتي أسرة وكان من الاستحالة إخراج من باعوا واشتروا وتوارثوا، رغم أن أمي لم تكف عن متابعة القضايا بينما كان أبي يبيع آخر قراريطه ثم يكتب مذكرة مطولة إلى مولانا الملك فيصل بن آل سعود ليؤكد له أن قبيلة بني سليم التي وقفت بجانب أخوانها من شُمَّر وعنزه قبل الخير حين كانت الجزيرة تنتظر محمل الحجاج، وأنها فتحت مراعيها لإخوانهم عبر أكثر من القرن، آن لها أن تعود إلى مضاربها في نجد، وأن يُعْمل حسابهم في الخير الذي عمَّ وفاض، وأنه

يملك أكثر من مستند يؤكد أصوله الحجازية إلى جانب عـــدة عقود للتحالف في السَّراء والضراء وقَّعهـــا ســـعود الكبيـــر أو نوري بن شعلان شيخ مشايخ قبائل الرولة التـــي تســـكن شمال الحجاز حتى نهر الأردن، وألحقها بعدة صور باهتـــة لجدَّيْهِ الشافعي ومنازع وهما يلاحقان الغزالات في العلاقـــي والقلزم. ومرابط خيل وعبيد يحملون على سواعدهم الطيور الجارحة وتحت أقدامهم رماد القهوة ليثبت بذلك أصالته، ثـــم ذيَّل تلك العريضة بحوالي ألفي توقيع لأفراد العائلة لكنه رغم ذلك لم يتلق ردا عليها.

وظل يروح ويجيء من السفارة إلى الخارجيـــة مقـــدما مذكرة مماثلة، مستأذنا السلطات في الهجرة أو العـــودة إلـــى دياره، ثم اكتشف بعد عدة أشهر استحالة ما يطلب وأن أحدًا لن يلتفت إليه، ففرك أصابعه التي صارت أكثر توترا والعمة "مزنة" تبط له خبز الشعير على الرماد وتحدثه عـــن عـــزه ودلاله وأن جده الشافعي كان يصهل بفرسه من العلواية حتى أرض السبخ والسودان ولا يستطيع أحد أن يقف بوجهه، أبي الذي كان يردد فاركا مسبحته:

ولم أر مثل الهم ضَاجَعَهُ الفتى

ولا كسواد الليل أخفق طالبه

ظل يراقب قراريطه التي حوطها البرامـوة والغرابـوة وأولاد مزِينة وآخرون، لم يعد يعرفهما بعـد أن حوطوهـا بأسوار طينية وبنوا فيها تلك البيوت الواطئـة وشـقوا بـين أبوابها المداخل والشوارع، ظل يطوف بين تلـك المـداخل الضيقة يتفقد شجرة كافور، كان قد زرعهـا فـي أحـراش أرضه، أو توتة خليج الشافعي وهم يخبطـون فـي جـذعها ليستكملوا امتداد الشارع الرئيسي الذي يصل هـذه البنايـات بالأرض المسفلتة قبل أن يزيلوا اليافطة التي كـان مكتوبًـا عليها "رِبْع منازع" إلى "عزبة التل" بينمـا عمتـي "مزنـة" مازالت تجز في وبر ناقة وحيدة وتصنع من وبرهـا تلـك العباءة التي تحاول منذ عشر سنوات الانتهاء منها حاكية لـه مجرودة الشافعي أو منازع أو محجوب الكبير قبل أن يلقـوا به في جوال إلى النهر مستبدلة الاسـم الـذي فـي بدايـة المجرودة على هواها، كانا مازالا جالسين في بيـت الشَّـعر يتحدثان عن المهاري التي ربطها في دوار البيت وعن كونها لم تخصب بعد ولم تنتج سوى تلك المهرة الصغيرة التي لـم يختر لها اسما، ورغم كل الجهود التي بذلتها العمة "مزنـة"

في متابعة مسألة النتاج هذه، فقد توصَّلا في النهايـــة، وهمـــا جالسان على فرو الضأن في وسط الدوار أن الخيـــل مثـــل النساء، ومثل الدور الجديدة، فيها الشؤم وقدم الخير، ويبـــدو أن كل الذي اشتراه أبي لم يجلـــب الخيـــر الـــذي ينتظـــر، خصوصًا وأن الذين يأتي بهم "سرور العبد" ليتفقدوا المرابط وهم يهفون بعقالهم ذات اليمين وذات اليسار، يتحدثون عـــن المراعي الألمانية والمزارع البلجيكية وكاتلوج جياد العائلـــة المالكة البريطانية ومزادات الخيل في اكسفورد ولندن، كانوا يروْن مُهرات أبي لا تستحق عنـــاء المشـــاهدة، ويكتفـــون بالاندهاش لأن هناك قبائل عربية مازالت تحـــتفظ بأنســـابها وسلالات خيولها في هذا الوادي. أبي الـــذي كـــان مســـتعدا بصوره ومستنداته وبكارج القهوة وعريضة المطالبة بالعودة إلى الأراضي الحجازية لم يجد من يستجيب له ســـوى هـــذا الذي يلقبونه بالأمير "لُبَدْ" سيأخذ أبي من على فراء الضـــأن بجوار مرابطه الخالية ليشاركه رحـــلات قنصـــه وملفافـــه باعتباره "بركة" أو خبيرًا في صيد الجوارح، سيرحلان معـــا في رحلة طويلة من جبال الألب ليصطادا الشواهين البيضاء حتى جبال سنقار في أوزبكستان أو تركستان وأحيانا أطراف

كندا وأستراليا، أبي الذي سره كثيرًا ركوب الطائرات وكان يملك مهارة في احتساء القهوة وتقليب النـــار ولـــه عينـــان صغيرتان حادتا الإبصار وقادرتان علـــى معرفـــة الطيـــرة وعمرها وأصالتها من النظرة الأولى، بل إنه بدا خبيرا فـــي كل الجوارح ومواسمها وأقطارها وأكثر خبـــرة فـــي جبـــر الريش إذا انكسر للطيرة واحـــدة أو أكثـــر، يســـتطلع أرض الملفاف ببصره الحاد ليتحاشى أثر الهوام، وكان قـــد جـــاس أرضًا كثيرة، وباع قراريط أكثر، ليركب عربة مصفحة جيب قديمة ويركب مع ســـرور ومبـــارك مـــن وادي النطـــرون والعلمين إلى وادي الريان وبحيرة قارون، قضى أيام طويلة من حياته يطارد فرخات القش والطرشون منتظرا أن يســـقط في ملفافه عدة شواهين ليعيد بها أمجاده بعد بيعها بعدة آلاف، ولم تسقط في ملفافه سوى الحباري والجرابيع، كان الصـــيد مع الأمير "لُبَدْ" في تلك السفرات ليس شركا بائسًا على ظهر حمامة – قد يقع عليها طائر ما يحلق كفريسة ويسقط مخلبـــه في لفافة الشرك فيركضون نحوه ليطوقوه بعبـــاءتهم – بـــل معركة بهيجة يطاردون فيها الطيور باللاســـلكي والبنـــادق الآلية ويحدِّدُون مواقعها بالرادار لذلك اكتفى أبي بالتعامل مع

الموقف ليس باعتباره صقَّارًا بل "خبيـــر جـــوارح" يفـــرك مسبحته ويقول إن الأبيض من الطير يسر العين، والأســـود شرس، والأحمر صَيُود، والأخضر في الشواهين هـــو أردأ الأنواع، والنداوي يصلح للقنص•، وقد يحكي لهم عن الجـــد منازع الذي اصطاد القرود والنعامات من أرض الســـودان، أو أنه كان للجد الشافعي صقر سنقاري عمَّـــر معـــه عشـــر سنوات كان يسميه "القنوع"، يكفون قهوتهم وهو يتأمل القاعة التي ملأها الأمير "لبد" بكل الجوارح على اخـــتلاف ألوانهـــا وترك لعبيده مهمة ملْء حواصلها بالطيور الصغيرة وتنظيف مخالبها وتدريبها على مطاردة الغزالات.

بعد أن عاد أبي من تلك السفرة الطويلة علَّق على بابـــه لافتة باسم الشيخ "مطلق الشافعي الســـليمي" خبيـــر خيـــول وصقور، وطبع عدة كروت ليعطيها "مبارك" لضيوفه الـــذين يأتون إلى صَيْد الغزلان من وادي العلاقي بعد أن نصب وتدا وعلق في طرفه فرخة ريش وبعض حباري وحمامات برية في قفص، وصار يتحدث أكثر عما يليق باسم العائلة وعـــن مشروعات إعادة أمجادها، كالتفكير في عقد مجلس دائم لهـــا

• القنص: صيد الغزلان.

وأيضا التفكير في إنشاء جريدة باسم القبيلة يكـــون شـــعارها "البداوة أصل الحضارة".

٤

جدي لأمي وأبي ليس له صورة، كان اسمه "يونس" كان أخا للشافعي ومنازع معا، وله هذا الجد في بر الشـام بعـد الهجج يقول أبي استنجدنا بالشريف عبد الله، وتقول أمي بـل بنوري ابن شعلان سيد قبائل الرولة، كانت "خيَّاليـة" التـي حاكوا عنها المجاريد تهدهدني العمة "مزنة" علـى وركيهـا وهي تهزج بها:

ما انك للي يصيد عويل

ولانك ثوبة للرعيان

انتي سلالة من حرَّلسيد

جداد منسَّب للشجعان•

كانوا قد ألقوا بها في النهر للتمساح حتى تظـل مهـرة أصيلة ولا يمتطيها فلاح، حتى ولو كان "عباس الأول" ابـن مولانا المعظَّم، يقول أحد أعمامي، كانـت كتائـب عبـاس تركض وراءنا بالهجن وقد شردنا بالنساء في الصحراء حتى

• أنت لستِ صيدة ولا غنيمة للرعيان أنت من سلالة حـرة وأجـدادك أنسابهم للشجعان

وصلنا إلى الخان، عمة أبي التي لا أعرف اسمها ستقول إن هذا الجد الذي هج بنا كان اسمه يونس، وإن الوالي أرسل وراءه من طعنه في ظهره عند الخان. ولكن هناك روايات أخرى تقول إن "سطام" وهو ابن عم شقيق له هو الذي طعنه في ظهره، فسموا ذلك الموضع "خان يونس" أي المكان الذي تمت فيه خيانة يونس، وأنه فعل ذلك ليتولى مشيخة قبائل العربان.

يونس هو الذي أقسم مع "منصور المزيني" شيخ قبائل "مزينة" على أخوَّة الدم في بر الشام، فظلوا عُقُودًا يستبدلون الزيتون والزيت وقطع الصابون الحلبي بحرير ودبيق وشعير أرض القبط، ويقال إن لملوم الباسل هو الذي أسكن قبائل "مزينة" في دواره حين هجُّوا من اليهود وقالوا "نحن أصحاب عهد يا شيخ العرب" فنصب لهم خيمة قرب مضيفته ولما ضاقت بهم، بنوا بيوتًا طينية وأحواشا في ربع منازع وظلت جمالهم تروح وتجيء في قوافل الحجيج ومواسم الحصاد ورحلات التجار.

حين تمر العمة فاطمة المزِينيَّة على مجلس أبي تقول العمة مزنة "الضيفة"، الضيفة قالت، الضيفة راحت، الضيفة

قعدت، وما عادوا ضيوفا، صاروا جيراننا، حين ندق السامر لكف العرب تأتي العمة فاطمة لتضرب بالعلم• وتهزج.

عذرا منسوبة وتخيل

تخف الشايب والشبان

وعيونك جوز غداريات

يهودي صابغهن بألوان

وحين يلطخن وجوههن بالنيلة تأتي العمة فاطمة ومعها أختها مريم لينقروا طبول الحداد تتوحان مع جداتي.

بوابته يام السبع علامات

حيغلقوكِ اليوم بالضلفات

تأتي العمة فاطمة لتصحن الكحل الحجري والشبّة والمستكة، وتتحدث عن ديار عنزة، وأرض مزينة، ومرابع الحويطات وتختم الحكايات بأن تقول "الله يرحم ناسنا وناسك كانوا جَوَاد، وأهل مروءة".

العمة فاطمة كانت صديقة النجدية الوحيدة، فحينما جاءت النجدية من كفر الزيات على هودج وقافلة من الجمال كابنة عرب حقيقة، أطلقوا لمقدمها الخرطوش طوال سبعة

• نوع من الغناء البدوي.

أيام، اكتشفت النسوة أن بنت آل الجبالي النجديين الأشـــراف ابنة حضر، وتعرف كيف تخطُّ حَاجبيها بالقلم الأسود، وتسف النشوق من منخار حاد طويـــل، ولهـــا عينـــان مكحولتـــان بالإغواء. كان لملوم باشا فخورًا بامرأته، فرغم أنها مهـــرة أصيلة، لكنها لم ترتد البراقع السُّود، وتخرج من غطاء رأسها خصلة الشعر الناعمة وتعلق على مفرق جبهتهـــا التعـــاليق المذهبة كأميرة تركية، وتعرف كيف تصنع "أبرمة الحمـــام" و"الترلي" ، وتحشو الضأن بالزعتر والفستق، وفـــي صـــينية القلل الفخارية تضع أوراق الكافور، وتذيب في الماء رائحـــة الورد المقطرة، وتدس بين الملابس أوراق الحناء.

كل ذلك كان مبهرًا وسط البيوت الطينية الواسعة التـــي مازالت تفت دقيق الذرة في اللبن الرائـــب، وتســـكب عليـــه العسل الأسود كقمة ما يعرفون في فنون الطبخ، ولـــم يكـــن سوى الضأن وفتيت الخبز للضيوف وأهل المربع، "النجديـــة" التي وجدت في الجدة "فاطمة" الاهتمامات نفسها، تشاركا معا في تعبئة عصائر المانجو بعد تسكيرها وإغلاقهـــا بالشـــمع، وعمل مربى اللارنج التي يتحاكى بها النجـــع كلـــه، العمـــة فاطمة المزينية هي التي تفرك "للنجدية" ظهرهـــا بمفـــروك

الكافور وزيت الزيتون وتعالج كل الأوجاع تقريبـــا، لـــذلك ارتبط اسمها باسم "سقاوة" تلك التي تقف عن يمين انشـــراح في الصورة "ممتلئة" أطول قليلاً من سهلة، أقل جمـــالاً مـــن "هند" وأكثر من "سهلة" لم يقولوا على "سقاوة" مسكينة رغـــم أنها رحلت أسرع وعاشت سنوات طويلـــة، تســـقط بـــاردة الأطراف متقلصة الملامح رغم أنهم علقوا لها حجر الياقوت عند مفرق رأسها ليذهب وجع الـــرأس وألبســـوها الحريـــر الأخضر كي يهدأ بالها وتذهب الأرواح الشـــريرة، وبحثـــت النجدية في كل النجوع، لتجد حجر "الدر" الذي يسكن القلب، ودقوا لها سمكة خضراء على صدغها بالوشـــم، وشـــرَّطوا أعلى حاجبها، لكن "سقاوة" التي تتحول من قطعة وادعة إلى جريدة مطروحة على الأرض فاقدة للحياة، كانت لا تفارقهـــا تلك التشنجات، ظلت تسقط مرة بعد أخـــرى، ورغـــم أنهـــم حرَّموا عليها دخول المطابخ والتحرك وحدها فقـــد ســـقطت ذات مرة على حديد الفراش ومرة على قصـــعة النـــار، ثـــم أخرى على صوان البكارج قبل أن تسقط ســـقطتها الأخيـــرة فوق عمود البلكون الذي يشبه القلة الفخارية. تحلقوا حولهـــا،

كان الدم ينزف والكلوب الذي في سقف البلكون تحط عليه فراشات كثيرة وتطير، وبأجنحة لها رائحة شواء الضأن.

العمة "فاطمة" هي التي تعرف تفاصيل الحكاية التي أخفوها كثيرًا، ربما كانت جالسة مع "النجدية" حين سمعت صوت الباشا يقول إنه مجرد كلب، وكانت "سقاوة" ممددة بسيقان بيضاء وملقاة على الأرض، وكانت عينا "سهم" توغلان في ثنايا الثوب الذي انكشف لسيدته، "سهم" الذي كانت "انشراح" تلقمه أحد ثدييها وتلقم الخال "تافذ" الشق الآخر، و"النجدية" تقول إن لبن العبيد يصلب حيل الرجل، على عكس البنت التي لا ينبغي أن ترضع أبدا من عبدة. "سهم" الذي كان يركض كجرو مع الصغيرات اللاتي في الصورة، وبينما أكوام القطن تُعَبَّأ في أكياس ضخمة وترص في فناء بيت "النجدية"، وهم يتحدثون عن أسعاره، كانوا يقفزون جميعا من فوقها وكانت ساقا "سهم" النحيلتان تنقران مثل قرود الأرض السبخة، وحين يلعبون لعبة الاختباء كان دائمًا يأتي بسقاوة من مكامنها، وحين تتدحرج بين الأجولة مختفية يمسكها من ضفيرتها، هذا قبل أن يكبر ويقول لكل الصغيرات "يا بنت سيدي" ويخفض عينيه قبل أن يمر بهن.

ولكنه ظل رغم ذلك يروح ويجيء بين الفناعين، فناء البيت وفناء المضيفة أو مجلس الرجال، يدخل ويخرج من قاعة المطابخ يحمل بكارج القهوة وآنية الطعام على رسغه، ويمسك لـ "نافذ" مهرته حين يمتطيها ولا يظهر في الصور، وحين أسأل عن شكله سيقولون باختصار "عبد" من عبيد عيلة منازع، وربما له ملامح "انشراح" أمه أو "نَـوَار" أخته، أو ملامح أخرى لا يحبون تذكرها، يقولون إن له اسمًا آخر لكن الباشا هو الذي أطلق عليه "سهم"؛ لأنه كان يستعيض به عن كلاب السلوقي في رحلات صيده، يركض وراء الطيرة التي يسقطها الخرطوش، ويأتي بها قبل أن تسقط على الأرض. "فاطمة" المزينية ستقول إنه كان جاثيا فوقها حين انتزعه الباشا، يبكي ويقبّل ساقيها اللتين انكشفتا معتقدا أنها ماتت، وعلى الرغم من أن "سقاوة" كانت غائبة عن الوعي تمامًا ويحدث كثيرًا أن تتصلب وتقع وتصبح في برودة قطعة معدن، فإن الباشا رفعه باتجاه الفراغ قبل أن تلتهب النيران ويعم البيت رائحة الضأن التي تشتعل على الخوازيق.

ظلت العمة "فاطمة" التي تجلس بجوار "النجدية" تروح وتجيء، تسحق البن والهيل والحبهان، والباشا يجلس في

تراسه وثمة ضيوف أكثر أهمية، يفرش لهم الممشى بالسجاد الأحمر، ويتحدث عن مولانا الـذي يقـنص فـي أنشـاص أو قارون، أو وادي الريان، وتراقب "هند" وهي تسند رأسها إلى فراغ البلكون و "سهلة" تلعب بعرائس قش وقطـن مـع خادمات صغيرات، مر زمن طويل صارت العمة "فاطمـة" لا تغادر بيتها ولا تجيء لتقول لأمي "الله يـرحم الغـاليين" وصار أبناؤها الكثيرون إذا مررت عليهم لا يعرفونني وكنت أمر فقط على بيتها فأراها محنية بثوب مطرز، وفي وسطها نطاق أحمر، وفي سيالتها مفروك المريمية وصارت تتسـند على عصا غليظة ، وحين أمرُّ ستتطلع بعينيهـا الضـيقتين منادية على قفزات قدمي "يا بنت شيخ العرب يا أم الحريـر مقصَّب".

"يا بنت شيخ العرب يام الضفير معطَّر".

أنظر إليها و "نَوَار" التي كفت عن حملـي وصـارت تسير جانبي تاركة لخطواتي أن تسـبقها قلـيلاً مـن بـاب الاحتشام، هي التي تقودني لأسلم على "ريحة الغاليين". كانت "النجدية" قد ماتت ولا أعرف هل كانت "هنـد" فـي البيـت المظلم أم لحقت بها.

بعد عدة سنوات أخرى كانت البيوت الطينية المتلاصقة لآل مزينة قد تحولت إلى مبان مصبوبة بالأسمنت والحديـــد وتحت منها بعض دكاكين للبقالة والخردوات، وصـــرت إذا مررت لا يناديني أحد. فقط أشم رائحة المريمية المفروكـــة وَحَبَّ الهيل لم تعد في سيِّالتها، وأترحَّم على العمة فاطمة.

٥

"انشراح" التي في صورة "هند" بثوب قصير وبنطال منفوش، سمراء، عفية ولها صوت فشلت "النجدية" أن تجعله أقل ضجة، يقولون إن الجد منازع اشترى أمها من مكان يدعى "ود مدني"، كان ذلك عندما كان عائدا مع قوافل الصمغ وريش النعام والأخشاب المعطرة. كانت القوافل التي تمشي جمالها معقوف على متنها ذلك الحبل الطويل الذي يمسك رسغها صف أطول من الرجال والنساء والصبايا مضطرين لاستكمال المشي بأقدام متعبة متورمة تحت شمس حادة ورمال ليس عليها أثر شيء سوى هياكل جمال وضباع وبشر نفقوا في رحلة ما في الطريق، وكلما توقفوا في محطة، كان عليهم أن يتخففوا من حمولتهم حتى تصل إلى البحر بخسائر أقل، عارضين البضاعة بأسعار بَخْسَةٍ، الجد منازع التقط الكثيرين وأسكنهم في ربعه، أسفل التلة العالية وسماهم الناس عبيد عيلة منازع. "انشراح" التي تسكن هناك حيث بنى "مبارك العبد" الآن دواره، وصار له مضيفة واسعة

وعربة لاندروفر وحول بكارج القهوة تتحلـــق دائـــرة مـــن الضيوف يقول بفخر: "كوايتة"، "سعوديون" يترجلون بعـــدها في عربات أكثر فخامة ليلاحقوا غزالات "أيله" و "العلاقـــي" في رحلات قنص يصبح فيهـــا عبيـــد عيلـــة منـــازع أدِّلاء مخلصين، لا تستطيع العمة "مزنة" إذا مرت هناك أن تتحدث بجرأة أكثر عن "حبايبنا وخدامينا" مع أنهم ما زالـــوا يقفـــون لمرآها وحين تمد يدها فسيأتون واحدًا بعـــد آخـــر لتقبيلهـــا، ويقولون لها كما كانوا دائمًا "يا بنت سيدي".

"انشراح" التي تسكن هناك الآن، وإذا مرت مهرة لـــن تعرفها لأنها لم تعد تتذكر أحدًا ولا حتى أحفادها الذين يلعبون حول البيت. من يوم أن أخرجوها من البيت المظلـــم كانـــت عيناها المليئتان بهذا النعاس والاحمرار كليلتين تمامًا وغيـــر قادرتين على التحديق سوى بهذه الإغماضة، الأطفال الـــذين ينادونها يا جدة سينظرون لمهرة بحذر وهي تعبر الطريـــق الترابي خلف التلال الخفيضة. يقولون إنهـــا كانـــت تحـــزم وسطها بهذا النطاق المتسخ الذي تربط فيه مفـــاتيح الغـــلال وغرف القدور والخزين. تفتح صدرها لتظهر عظمة ناتئـــة لتكشف نحولها على تلك العظام البارزة. "الشناف" المعلق في

الأنف أخذ من لحمته الكثير وتدلى فربطته من الجانبين بخيط يرفع فردتيْ حلق أكثر ثقلاً تركا شقًا واسعًا في موضع القرط، تعلق الخيط الذي يرفع الثقل عن الأذنين فوق رأسها من تحت الغطاء سيبرز الخيط المعلق بالدبابيس الملونة، تظل تروح وتجيء محدثةً بخلخالها الكبير تلك الضجة مع شخشخة المفاتيح وصوتها الهادر في الخادمات آمرة ناهية. تركت لها "النجدية" عدَّ أجولة الطحين، ومراقبة نظافة الحجرات وتجهيز حوائج المطابخ، فهي التي تراقب البيض الذي فقس، والبطات التي يجب ملء حواصلها بالحبِّ، والبهائم التي جف ضرعها أو امتلأ، تكتفي انشراح بأن تجلس تحت قدميْ سيدتها وهي تدلكها بزيت الخردل والماء الدافئ وتقول "يا ستنا.. عبأنا زلعة سمن" و "يا ستنا فتحنا زلعة جبن"، و "يا ستنا كم كيلة سنعجن الليلة؟".

"انشراح" هذه هي التي كان عليها حمل ذهب النجدية بعيدا عن أعين العسكر الذين هبطوا، وفي أيديهم قائمة الأسماء، التي كانت أرض الباشا تتحول بها إلى إقطاعات صغيرة لا تتجاوز الفدَّانين، يبنون حولها الأسوار ويشقون بينها قنوات السقي، وثمة عسكر آخرون كانوا يحمِّلون

المهرات والنوق والنعامات والغزالات الصغيرة من الـدوار، مقسمين أرضا كان يطلق عليها "إقطاع البدوان" إلـى رقعـة شطرنج، تاركين حديقة آل الباسل خالية تمامًا بـلا جـوارح أو مهرات أو غزالات مسيجة في الأقفاص، النجديـة التـي جمعت كل ما على صدور بناتها من حليْ وكرادين ذهـب، وخلاخيل مجدولة، ونبائل وصدريات من الذهب، وصـرَّتها في ثوب خلق، وربطتها حول وسط انشراح لـتجلس هنـاك على خليج منازع أسفل أثلة فردتْ فروعهـا المائلـة علـى الخليج، بعد أن حمَّلتها بصغيرتها "نوار" إمعانا في التضليل، ومن وسط خرق الصغيرة كانت جنيهات ذهبية مدسوسة في اللفائف على حجر عبدة تهـزج وهـي تحمـل صـغيرتها، سيقولون للنجدية كل مرة "العبد يبيعك كمـا تبيعـه"، لكـن انشراح كانت تعود كل مساء محمَّلة ببضعتها لم ينقص منها شيء، وظلت تفعل ذلك كل مرة كلما عبرت مصفحة هنا أو هناك.

"انشراح" هذه التي كان يسمع صوتها مـن ثـاني دوار وكان لحركتها العنيفة في البيت هذا الضجيج لم تعـد تـتكلم على الإطلاق، قالوا السكتة وقالوا الحزن، حدث ذلك علـى

فترات طويلة، كانت رائحة النار التي أمسكت بتلابيب "سهم" لتحترق معه المضيفة بأكملها قد وصلتها متأخرة ولم يفسروا لها كيف أبقت النار على ساقين مُقَيَّدتَيْن، في جثة محترقة؟!، وكيف حدث هذا؟ ظلت تدب من غرف الخبيز إلى قاعة القدور إلى صالة الغلال لكنها لم تتكلم حتى عقفوا "هند" من ساقيها وأوثقوها في الفراش. قالت "أنا مع بنت سيدي حتى يؤون الأوان".

ثم حملتها إلى المبنى الذي في آخر ممشى الحديقة محفوفًا بأشجار ليمون وأبراج حمام قديمة ومهدَّمة، يتجمع فيها الكثير من النفايات والقش وبقايا فراش قديم كنت أستطيع التكهُّن بما فيه، كان بيتا قديما من غرفتين بالطين والتبن وقاعة في وسط سقفها فتحة دائرة بين ألواح الخشب، من الفتحة كانوا يدلون سلال الطعام وبعض الاحتياجات الأخرى.

"انشراح" التي في الصورة تحمل هند على حجرها ظلت تحملها في هذا البيت المغلق داخل القاعة التي في سقفها تلك الطاقة، كان هناك مضخة ماء تجلس تحتها "هند" كل مرة يتلوث ثوبها بالبول أو البراز، تدق "انشراح" المضخة ليغمر الجسد الماء الذي يستكين ويتكوَّر في بؤس.

الماء الذي ينسكب على الأرض يخرج من مجــرى تحــت تجويف الحائط إلى الخارج حيث ينصــرف تحــت أشــجار الليمون. من فتحة السقف كان يمكن لهما التكهُّن بأول النهار وآخره، ومواقيت إزهار البرتقال وطنــين البعــوض صــيفاً وانسكاب المطر على السقف ورائحة المــاء الراكــد تحــت الأشجار. الغرف التي أغلقوا نوافذها بالطمي والقش صارت مصمتة لا يُسمَع منها شيء ولا يدخل إليها شــيء، ضــوء النهار وحده هو الذي كان يدخل من فتحة الســقف، وكــان بأعلى كل غرفة كوة صغيرة تجاور مــرائن الخشــب فــي السَّقف تجدد بعض الهواء لكنها لا تدخل شيئا، تقرفص هنــد على الفراش و تظل عيناها باتجاه الكوة التي عرفتها الفئران والقطط والعصافير الصغيرة وبعض الخفافيش والعناكب، بعد أن بكت وانخرطت كثيرًا في النهنهة والصياح ونبش الحوائط بأظافرها ويد انشراح العفية تمسك بها في تلك النوبات حتى تمر ثم تضع رأسها على حجرها وهي تتلو الرقى والتعاويــذ وتعيد تضفير خصلات الشعر التي كانــت مثــل "سلاســل الذهب" كما تقول "النجدية" في ضفيرة طويلــة، بعــد مــدة استكانت للصمت من جديد والذهول عن نفسها.

"انشراح" قالت إنها في الآونة الأخيرة كانت مثل النسمة بعد أن كفت عن لطم خديها وخبط رأسها في الجدار، كانت تنهمك فقط في مراقبة الخارج بكل حواسها، تتلصص على الحوائط لتتسمَّع صوت صحن البن الذي كان يأتيها عبر دقات لها إيقاع ثابت تتشمم رائحة الضأن التي تشوى في مكان ما محدَّثة نفسها أحيانًا أنهم الآن في المطابخ يوقدون النار تحت الأواني الضخمة، وأن النجدية مازالت تخَبِّئُ في صدرها علبة النشوق، تراقب من فتحة السقف "نقرات الظباء" وهي تدخل نجمات قليلة متناثرة تركض في السماء، تعرف بمرورها على هذا الموقع أن سنة جديدة عبرت، وهي ما تزال تتحسس الجدران وتتسمَّع ضجة ما، مواء قط، رفرفة أجنحة طير على الأشجار، حفيف خريفي تسقط له أوراق جديدة، لم تستطع أن ترى تجاعيد وجهها ولا الشعر الأبيض الذي غزا فجأة مفرقها، حين تأخذها "انشراح" على ساقها وتضفره وهي تهزج:

"الصبر ما قَضَي حاجات ملِّيت، والرجا بابه قَفَلْ"•.

• صبرت حتى ملّلت ولم يَقْض الصبر لي شيئا، والرجاء بابه مغلق.

كانت تشعر أكثر بهذا الضيق الذي يعيدها إلى دوامة البكاء ثم تعود لتصبح ساهمة شاردة تلاحق أشياء مجهولة في العتمة، متأكدة أن الرجاء بابه مغلق مثل الحوائط المصمتة، وحتى لو خرجت فإن ثمة عزلة أحكمت سياجها ولم يعد إلا التحديق في الفراغ، لم يعرفوا هل كانت واعية أن لها طفلة صغيرة تجلس باستكانة على حجر "سهلة"، هل أطلقت روحها لتتفقدها، سيقولون إنهم رأوها تفتل العجين معهم وأنهم تطلعوا حولهم فماءت قطة ما وخرجت شاردة، بعضهم كان يراها دائمًا كما كانت، تُسَوِّي الفراش في الغرف، أو تشرب من الماء المعطر في طرف التراس ثم تتمسَّح في قدميْ سهلة وتخرج تموء وتخدش في البسط المفروشة ورغم أنهم كانوا يتهامسون عن أرواح الأحياء والموتى فقد تحاشوا جميعا أن يذكروها، وأن يذهبوا إليها ولو عبر هذه الطاقة الصغيرة في وسط السقف؛ لأن ذلك فيما يبدو كان سيقلِّب عليهم المواجع، كانوا يكتفون بسؤال "نوار" "أمك حلوة يا بنت" ولم يسألوا عن "هند" أبدا، وكان يكفيهم أن تطأطئ "نوار" رأسها ليطمئنوا.

الظلام الذي تحدق فيه هذا لم يعد يخيفها، ولا نباح الكلاب في الحقول البعيدة، تقرفص في الضوء الشحيح

أو العتمة وتكوم حبات الرمل على أرض الغرف التـــي لـــم يصقلوها بالخشب، تركوها بطميها لتنبشه بأظافرها محدثـــة خطوطا طولية وتقاطعات شبيهة على الجدران التـــي كانـــت بلا طلاء أيضًا ولا صقل، كانت طميًا ينفرط منه الرمـــل إذا حكَّته، وتصنع منه معسكرات النمـــل ثكنـــات تمـــرق بـــين جحورها هنا وهناك، لم تحاول عدّ الأيام ولا صنع العلامات، "انشراح" هي التي استطاعت أن تضع علامات مؤكدة للساعة والفصول بالنجوم التي تعبر على فتحة السقف ورائحة زهر البرتقال إذا أزهر، ربما انتظرت الموت لكنها لـــم تحاولـــه، كانت قد فقدت قدرتها على فعل أي شيء سوى التحديق ولم تحاول الهرب، كانت مستسلمة تمامًا محنية على كومة رمـــل أو متطلعة باتجاه كوة أو مقرفصة تحت السماء الضنينة التي تعبر من فتحة السقف تاركة للندى الليلي جســـدها محاولـــة استنشاق شيء غير هذا الهواء الراكد ورائحة الماء العطـــن تحت المضخة، الدمامل التي غزت ساقيها من تلك القرفصـــة فشلت "انشراح" في علاجها بقشر البصل والرماد، وكان كل يوم تتفتح بثور جديدة ويسيل منها القيح وثمة سعال مبحـــوح صار يلازمها، سيقولون مسكينة وهم يتطلعون إلى جســـدها

ويسكبون الماء الأخير لغسل موتها، ولن يضعوا لها "الصغيرة" التي تركض في بيت لملوم باشا في حجرها مرة واحد لأنها لن تتذكر ذلك أو ربما تذكرته كثيرًا حين كانت تتسمَّع الجدران الصماء ولا يأتيها سوى ضجة بعيدة تحاول تفسير حركتها، كانت ضجة لامرأة ذات شعر قصير يشبه في تجاعيده شعر ليلى مراد أو أسمهان ، وبأنف طويل تدعى "سهلة" كانوا يخيطون لها فستانا بديكولتيه مفتوح وعقد من اللؤلؤ لتذهب إلى البيت نفسه الذي خرجت منه "هند" لأن لملوم باشا سيقول وسط نهنهة ابنته الصغرى "أنفك منك ولو كان أجدع.. والبنت لابن عمها ولو تخلع عينيها، وبنت العرب مثل الناقة الطوع مطرح• ما تعلقها تبرك، ومطرح ما تسيَّرها تسير".

وحين مضت سهلة حاملة معها تلك الصغيرة التي في الصورة بفستان كروشيه أبيض لم يقولوا عليها مسكينة لأنها لم ترد أن تكون كذلك، على عكس الصغيرة التي كانت تذهب محمولة على أكتاف "نوَار" إلى مدرسة ربع منازع الابتدائية كان طرف الخيط في يدها صورا غائمة تحاول

• مطرح: مكان، تعقلها: تربطها

استكمال تفاصيلها، وكأن ثمة طريقًا كان عليهــا أن تتعقبــه ومصيرًا مماثلا مجبرة على تكراره، كانت هند تأتيها كثيــرًا تحدثها أن تغلق ذلك الصندوق لكنها كانت مُصرَّة.

٦

الإطار الذي كان مُذَهبا أصبح بلــون الرمــال باهتــا، ومتناسبا أكثر مع فضاء اللوحة التي ظلَّت أمها تحملها مــن بيت "النجدية" إلى بيت أبيها ثم إلى بيــت منيــل الروضــة متخيرة لها في كل مرة موقعا عموديا على مجلســها حيــث تسرح في شرود أبدي، تسقط عيناها على صفوف الرجــال، والحجالة تتمايل أمامهم راقصة، والقافلة البعيدة تبدو في أفق سرابي محير، اعتقدت "مهرة" في البداية أنه يخصُّها، ذلــك الشاب النحيل الذي سكن المضيفة لعدة أشهر ورســم تلــك الصورة مسميا نفسه "سليمان" كان يجلس مــع أبيهــا علــى البساط في ليال صيفية كثيرة يتحدث فيها عن أرض الحبشــة وبلقيس وسليمان الذي كان يسمع أسراب النمل وهي تتخاطب تحت قدميه، وعن نسله في بلاد الحبشة، لملوم باشا الذي كان بين كل مقطع ومقطع من الحكاية يؤكد أن الجد منازع كــان أحد المكتشفين الكبار لمصبِّ النهر، وأنه يــتفهم تمامًــا مــا يقول، لكن بلقيس ملكة سبأ كانت تسكن الــيمن لا الحبشــة، وهو لا يستطيع أن يتخلى عن هذا الاعتقاد، كــان "ســليمان"

أو بيير كما وقَّع لوحته ينخرط في الرسم غالقا عليه البـــاب متطوحا وسط ألوانه حتى يحل المساء حينهـــا يلـــبس كمـــا يلبسون الثوب الأبيض والعقال والعمامـــة الشـــفافة، فيبـــدو بياضه الرائق رغم كثرة مواضع البثور في بشرته، ويحتسي معهم القهوة متحدثا عن نظريته في التناسخ، مؤمنا أن دورة لا تنتهي للأرواح تسكن ظل إنسان، فرع شجرة، جسد قطة، كان قد أيقن أن انشغاله بالبدوان جزء من روحه فقد تكـــون روحه قد تلبَّستْ جسد مهرة عربية قبل أن تحل في جسد قرد استوائي ثم استقرت لدى جسده ريثما تتحول مرة أخرى إلى أجساد كائنات لا يعرفها، الباشا كـــان يعتبـــره – بـــالطبع – مجنونا، كانوا قد عرفوا مجانين كثيرين مثلـــه مـــروا هنـــا أو هناك، التقى بهم الجد هذا أو ذاك وهم يبحثون عن الذهب في "تلال اللَّقايا"، أو الزمرد في جبال البَجَة، يتذكرون ذلـــك الذي لبس قفطان العربان وظل يجول من رَبْع إلى رَبْع، جاء مع بونابرت، وكان مثل سليمان يصف مجالسهم في لوحـــات ضخمة، وينام في الخلاء معهم على وبـــر النـــوق وجلـــود الضأن، كان اسمه "دينون" يشارك محجوب الكبير أو يـــونس

رحلات كثيرة بحثا عن أشياء جديدة ليرسمها كالفلاحات أمام أفران الخبيز واحتفالات الأعراس والطهور والموالد.

كانوا يمرون كثيرًا، هذا قبل أن يبني الجد منازع هذه المضيفة التي صممها البارون "إمبان" نفسه، كان يقنص معهم ويجيء كثيرًا إلى حيث يرقد السمَّان في بحيرة قارون أو يبحث مع رفيقه "دورفتّي" في "كوم أوشيم" أو "نزلة النصارى" عن مومياوات جديدة، بعدها اعتادا أن يجيئا إلى حيث الجد منازع جاهزا لترحال في طرق لم يعرفها أحد قبله، قرر أن يبني "المضيفة" التي ليست بيتا من الشَّعر ولا حجرة من الطين المعبأة بالدخان، بل بيت عال كما يحب أن يسكن الإنجليز، حجرات مسقوفة بالأخشاب على جدرانها مرايا تكمل نصف الحوائط، ستائر من الحرير والجبردين السميك لتخفف الضوء، سلالم عالية بإطار من الحديد المطروق، قاعة من البُسُط الأعجمية والوسائد المطرّزة والمباخر، نوافذ مسيَّجة بالأسلاك خوفا من البعوض والهوام، خزانات ملابس مسيَّجة بالخشب، بلكون واسع يشرف على مرابط الخيل من جهة، وحدائق الموالح من جهة أخرى، أمام المبنى سيترك مساحة شاسعة من الرمال لتحط الطائرات

الهليكوبتر الصغيرة حاملة إمبان أو دليسبس أو دورفيتي، بعد ذلك ستصبح هذه المضيفة هي الطراز المعماري الذي تختاره النجدية بقاعات وغرف أكثر، كذلك كان بيت "هند" الذي لن تسكن فيه إلا لبعض الوقت قبل أن تعود ويغلقوا عليها النوافذ في بيت طين يجاور شجر الليمون وأبراج الحمام الخربة.

"ببير" الذي سمى نفسه سليمان سيعتز كثيرًا بأنه سكن المكان نفسه الذي سكنه "دورفيتي"، كان يقول عليه "مكتشفا" بصيغة تحوي الكثير من الفخر. الباشا سيقول إنه مثل الجد منازع مكتشف أيضًا، كانوا يمتطون خيولهم ويركضون في رحلات قنص طويلة حضر مولانا إحداها، يصلون بعد أيام إلى قوص أو الريان أو قارون أو جبال الزمرد، حيث يرون قطعان الغزلان والحمير الوحشية والظباء تسير آمنة يطاردونها، فتركض تاركة على الرمال آثارها نقشا يقتفونه حتى صخور وديان الحصى حيث تضيع القطعان تاركة صغارها للقنَّاصين بينما تختبئ بين الصخور الجبلية متأملة مصير الصغار التي تحيط بها كلاب السلوقي من كل الاتجاهات.

"دورفيتي" الذي جاء إلى الجد منازع باحثا عن زوج من الجياد الأصيلة ليرسلها إلى فينَّا، وزوج من الصقور المدربة على اقتناص الغزالات، سيرافق الجد إلى سنار وجبال البكابيش ثم بربر وشندي كان يبحث عن زوج من الظباء لإمبراطور النمسا أو ريش نعام يصلح لدوقة بروفانس أو حشرات استوائية لمتحف الأحياء في لندن أو زرافة لإثراء مجموعات الحيوانات البرية الملكية في باريس، بينما كان الجد يبحث عن "مسيل الذهب"، ذلك الماء المترب الذي تلمع فيه حصوات متكلّسة يكتشفون بعد إذابة القشرة أنه ذهب حقيقي في شكل حصى، ليس مهمًا ما كان يبحث عنه الجد لأن كليهما سيبحثان كثيرًا ويعودان إلى تلك المضيفة حيث يفترشون في النهاية مضيفة آل منازع المسوَّرة آنذاك بسور ضخم مثل القلاع بُسُطًا عجمية ورائحة بخور مكي مختلط برائحة شواء وفناجين قهوة لا تفرغ، كان ذلك قبل أن يزرع الباشا أشجار الكافور وَالعبَل العالية دون أفرع تصلح للتسلق، كي تظل العزلة مبسوطة تمامًا بين تلك المضيفة والبيت الذي يجاورها ولا يفصلهما سوى هذا السور الضخم، لكن بيير حين كان يمزج ألوانه كان هناك في طرف السور وفي

الجانب المتاخم للمطابخ وأفران الخبيز جانب من السور قـد تهدم قليلاً بفعل تسلُّق الخادمات ليرين البساط الأحمر الـذي يفرش للغرباء حين تحلق طائرة هليكوبتر حاملة معها بارودًا وخرطوشًا ووجوهًا حمراء لا تزيدها الشمس والركض فـي الأودية الجافة سوى ذلك الاحمرار، من فوق هـذا الحـائط نصف المتهدم كان الولد الذي صار أبي يطـارد الخادمـات الصغيرات ويلهث وراء صدر "فرحانة" أو يطارد "روضـة" في حظائر البهائم وعلى أكوام القش، وكن يتناقلن ذلك بينهن، وربما سمعته "هند" ليلاً وهن يتهامسن عن البكارة ومحـارم ليلة العرس، "انشراح" التي لا تترك غرفـة الكـانون ليلـة الخميس حيث يتحمَّمن ورائحة النار والماء الجاهز وصـوت المضخَّة وتعليق الغيارات علـى فـروع شـجرة التـوت، والجلوس على القش لتمشيط الشَّعْر كـان يعـرف موعـده ويترقبه وينتظر فوق السور ثم يقفز وينقض مـع خشخشـة الماء على الجسد العاري أو على ظهر التي تفرك قدمها فوق حوض الماء في غفلة انشراح التي يهاجمها النعـاس وهـي ترفع رأسها محدثة هذه أو تلك "يالـله يا عروسة منك إلهـا

رقبتي اتعوجت.. صبِّي يا بنت الميَّـه وقـومي الله يقطـع سنينكم".

وكان يعود مثلما أتى من على طـرف السـور حيـث تركَتْ قدماه المتشعلقتان آثارا جعلت من المسألة أكثر سهولة كل مرة وبشكل لا يلحظه أحد، من هنا كان يمكن التكهن أن هند قد فعلت ذلك أيضًا، عبرت إلى الشاب النحيف الذي كان يسمي نفسه سيلمان ويقطن المضيفة، ويحكي عـن القـرود وعبيد أرض السودان.

"سهم" الذي كان يتحرك بين العالمْين من المضيفة إلـى البيت والعكس، هو الذي سيقول للنجدية إنـه يرسـم عبيـدا مكومين عرايا في مركب يقول إنه شاهدهم في مكان يـدعى "هرر"، يرسم سماء معبأة بطيور اللقلـق وصـحراء عليهـا هياكل عظمية لجمال نافقة وعدة صقور تطير فـي أقـدامها الخيط الذي تجذبه الجوارح في محاولة مستميتة للفكاك مـن الشرك، رسم عدة مهرات مستكينة في مربطها كان لإحـداها عَيْنَيْ "هند"، ولم يقل "سهم" إنه رأى تلك الصورة التي كانت فيها "هند" مُمَدَّدة عارية. الذين يعرفون جسد هند كانشراح لن تقول إن الحسنة التي بين ثدييها كانت لهنـد فعـلاً، وذلـك

الصدر الذي يشبه وردات قرمزية ناعمة كان أيضًا لها، في اللوحة فقط كان لها حِجْل فضي كَحِجْل انشراح ولكنه مقعود بسلسلة غليظة تسلسَل قدميها وعلى ضفيرتها الطويلة كان عقد فل ينحني من الجبهة حتى طرف الضفيرة وكانت نصف مغمضة وبين فخذيها رسم غَبَش قط بري ووجه مماثل لقط تمامًا لكنه يبدو كموضع حرمتها، إذا استثنينا العينين.

ذلك القط الذي كانوا يشاهدونه بعد ذلك يموء ويخدش البُسُط ولا يعرفون كيف يدخل من الأبواب المغلقة وكيف يغافلهم ويخرج وكيف تكون له عيناها واستكانتها نفسهما وأيضا ذلك النزق الذي تتحرك به. الذين يعرفون "هند" سيقولون إنها كانت تدير الأسطوانة لتتعلم الرقص الإيقاعي، تجلس وحدها محاولة تقليد صوت فتحية أحمد، وتتلو مقاطع من "ماجدولين" بصوت مؤثر تحت أشجار الحديقة قبل أن يلمحها أخوها الذي يقطن الآن في نيوجرسي ويمزِّق الرواية التي استعارتها من مس "أنجيل" ابنة ناظر المدرسة ويلطمها على وجهها فينزف أنفها، ولم تكف هند بعدها عن لضم عقود الفل من الحديقة، وهي تغني "رق الحبيب" بعد أن رحل "سليمان" شهدوا حول رقبة "هند" سيرا من جلد الزراف مُعَلَّقًا

فيه قطعة بيضاوية مثقوبة من منتصفها بشكل دائـــري، لهـــا شكل عين من العاج ستظل حول رقبتها ولن ينزعهـــا أحـــد سوى انشراح بعد أن تسكب الماء على جســـدها والعطـــور ويلحفونها بالمناشف ويقولون مسكينة. "انشراح" التي كانـــت تؤمن بكل التعاويذ السحرية قالت إن الزرافة تتنبأ بالغيـــب، وكل الكاهنات في أديس أبابا وسنار يضـــعون ســـيُورًا مـــن جلدها لتحمل التمائم والأحجبة، وقالت إن العاج تميمة سحرية أيضًا فهو جماد ميت يخرج من لحم حي وأن العين حارسة، وعين العاج تحرس المومياوات والأجساد الهالكة في المقابر القديمة، انشراح التي سترى في التعليقة تميمة لديمومة المحبة حتى الموت، ستعطيها إلى سهلة وهي بدورها ستضعها فـــي حافظة قديمة مع صور أخرى وأوراق وقصاصات من رواية "مجادولين" الممزقة.

ستحملها سهلة مع اللوحة التي ترحل فيها قافلة جمـــال وترقص حجالة ويقف صف الرجال وتضعها في غرفتها أمام الكرسي الذي تجلس عليه لترى منـــه النافـــذة عـــن يمينهـــا واللوحة في الحائط المواجه، كان ذلك بعد أن قـــال الباشـــا "أنفك منك ولو كان أجدع" والنجدية تقول له: إنه لـــيس ابـــن

عمها الوحيد لتعطيه ابنة بعد أخرى. الذين يعرفــون "هنـــد" سيحكون أنها بكت كثيرًا وهي تسمع عن ملاحقته لفرحانـــة وغيرها في الحظائر، وما يروونه عن فاطمة القرومية لكـــن الباشا سيقول "ابن عمها وهو أولى".. هند التي خاطـــت لهـــا مدام "كريستينا" ثوبًا منفوشًا بجيبونة وأحضروا لها زجاجـــة لافندر أو لسوار وحذاء بكعب مسمار وسارت وسط الكلوبات التي حملها العبيد وصواني الحناء التي أحاطوهـــا بالشـــموع وداروا بها دورتين في الأحواش والدواوير المتاخمة لأعمام أو عمات، وكانت الحجَّالة ترقص في الأرض المنبسطة أمام المضيفة والتي تهبط فيها الطائرات، والرجل الذي يخرج من الصف الذي يصفق تَصْفيقًا رتيبًا ينحني أمامها بتوسل، وهو يتغزل في الرقبة الطويلة كناقـــة الجمـــل والكعبـــين اللـــذين يضويان كمنارة، وبرق الشناف المعلق في الأنف مثل هلال قمري:

كعوبك شمعات منارة

يضون في دكان نصارى•

ضي جبينك بان شعيله

• يُضونِ – يُضئْنَ.

خدك وشنافك تمثيله

كيف هلال اتناشر ليلة

اتلاقى هو والفجرية•

والرجال الذين انتشوا بوجه لم تظهر منه سوى عين واحدة، وخصر يميل على الهازج بالأشعار في تلاحق وطراد بين صدها له بالعصا وميلها تارة عليه متحننة. كان على النجدية وضيفاتها أن يأمرن البنات الأصغر بالانشغال بالعروس بينما تركن أعينهن تلاحق "الصابية"• المنصوبة في خلاء المضيفة عبر الجدار المتهدم. في الصباح حملوها على هودج مثل أمها وجدتها رغم أن الباشا كان لديه عربة؛ فإنَّ البيت الجديد لا يفصل بينه وبين بيت النجدية سوى دوار واسع وسور، لذا مشوا وراء هودجها مكملين التصفيق الرتيب والأهازيج الغزلية حتى وصلوا إلى هناك، حيث أعدوا لها غرفة مسقوفة بالخشب، والمرايا ومفرش لمنامها

• ضوء جبينك ظهر ومن تحته الخد والشناف المعلّق مثل هلال تلاقى مع ضوء الفجر.

• الصابية: ساحة الرقص.

بلون ورق الكرنب وكلّه باللون نفسه، بينما مــلأت النجديــة أدراج المرآة والخزانات بالشبّة ومسحوق القرنفــل ودهــن الورد وورق النعناع والكافور والمستكة المفروكة في أوعية خشبية وإلى جانبه زيوت ذات روائح نفَّاذة نصحوها بتــدليك الأماكن الحساسة بها، وتدليك شفتيها أيضًا وألا يخلو ريقهــا من المستكة واللبان المر، سيتركونها مع فاطمــة القروميــة، ومع أنهن جميعا كن يعرفنها كما يعرفها معظم الرجال، قــد تحكي النجدية أن تلك المرأة قد جاءت إلى إقطــاع البــدوان وعلى يدها طفلة منذ سنين عديدة، كانت ومازالــت بيضــاء وسمينة لها ذلك الامتلاء المتناسق، وسيذكرون أن لها أزواج كثيرين، كان آخرهم "حلمي الصعيدي" النحيل القميء الــذي كان يعمل على ماكينة الطحين، يدلق الحبَّ في فتحة الماكينة، ويقف أمام السير الكهربائي أو أسفله حيــث يتجمَّــع غبــار الدقيق المطحون حيث تنحني كل امرأة لتجمع طحينها منكفئة على الأرض ينشغل هو بمراقبة طُرحَهن وهي تنحل وفتحات صدورهن تتلألأ عليها قطرات العــرق. لفاطمــة القروميــة أثواب دائمًا مفتوحة الصدر تكشف عن ثراء فــاحش يعلــو صدرها عقد من حبات مسبحة رخيصة بلون الزمرد يتمازج

مع لون قرمزي داكن لفم مرسوم وأسنان مصفرة قليلاً لكنها تثير الشهوة، سيعجبه المشهد بالتأكيد، ويتزوجها وتظل هي تدخل البيوت في ليالي الأفراح حين يتعرى جسد العروس وهي تزيل الزغب، وتقد مسحوق الشَّبة والمستكة تحت الإبطين وتشاهد الأماكن المحرَّمة، وهي تنتفها لتصير مثل جلد الأطفال ناعمة وملساء، تحف الحواجب بالخيط، وتكيس الجسد، بعدها تتعرف الملابس الداخلية للعروس مبدية رأيها في هذا القميص أو ذاك، معطية نصائح عن فرد قَصَّة الشَّعرْ أو ضمه بالمحابس، أو فرده بالزيوت والدهن. البيوت الأكثر تحفظا كانت تكتفي بمشاهدتها وهي تجلب معها قمصانًا للنوم من الستان الأحمر، وتأخذ رأيها في بعض الأمور كحشو حمالة الصدر بالقطن، وشد البطن بالأحزمة خصوصًا بعد الولادات، النساء الأكبر سنا سيسألنها عن أشياء أخرى مثل النوم على هذا الجنب أو ذاك، رفع الساقين وإطلاق الأصوات الأكثر غنجا، ولا تكف هي عن فرك الدخان، ولف السجائر والغمز بحاجبيها. تضحك تلك الضحكة المبحوحة وتصف بيديها تلك الحركات البذيئة.

"هند" التي خاطت ملابسها مدام "كريستين" واشترت لها مس "انجيل" عدة قمصان من جاتينيو وتكلفت بإحضار بدَّارة وإصبع شفاه واجتهدت في ليلة عرسها في رفع شعرها الطويل بوكليت فوق الطرحة التل وهن يضعن تحت قدميها أوراق الكافور والريحان كي تصبح حياتها الجديدة خضراء معطرة، تركنها لفاطمة القرومية لتحمل لها الكلوب وتعلقه فوق رأسها ثم تضع رأس هند فوق حجرها ممسكة ساعديها بقوة بينما تلف رجلَيْها لتباعد بين ساقيها لتترك له المجال ليضرب ضربتين فَتَسْقُط قطرات قرمزية على المفرش الذي كان له لون الكرنب، وتكتم هند صرختها. بعدها ستخرجان معًا وتتركانها تبتلع نحيبها وهي تسمع ضحكات فاطمة القرومية وتشم دخانها البعيد.

في الشرفة المسيجة بإطار من الخشب والحديد، ولها باب مفتوح على غرفة الضيوف وباب للبيت، ونافذة غرفة نومها، الشرفة المستطيلة كان لها بلاطات غامقة بلون التراب، ربما كان لها آنذاك لون آخر، كانت هند تقف متطلعة إلى الكلوبات المعلقة في شجرة توت ضخمة لتنير الفناء، وبعيدا تضوي أنوار معلقة أيضًا لبيت النجدية، البلكون

الذي تجلس فيه تسف النشوق من منخاريّها وتعطس آمرة بأن يحملوا برام الأرز أو فطائر القشدة إلى ابنتها التي صارت نائية، ملك رجل آخر. بين البيتين تقف للطيور وفراغ ومبانٍ منتظرة أن يعود من بيت فاطمة القرومية يستند على الحوائط ولثوبه رائحة الدخان، ولفمه تلك الروائح الغريبة لأفيون أو حشيش أو أشياء أخرى لا تعرفها، وربما انتظرته كثيرًا بتلك المساحيق التي ملئوا بها أدراجها، لكن المؤكد أن الخادمات كن يقلن إنه ينام في بيت فاطمة القرومية وأن هند لا تكف عن البكاء، بعدها مشت ليلاً إلى بيت النجدية وهي تحلِّفها برحمة الغاليين ألا تتركها تعود، وأقسمت أنها ستعيش خادمة في بيت أبيها فقط ألا يردوها إليه، وأنها ربما تموت لو أصروا على عودتها، "النجدية" التي وبَّختها وقالت "دلع بنات" ، وحدَّثتها أن المرأة عليها كل شيء، وعليها أن تحاول معه أكثر لأن كل الرجال يصيبهم الطيش ثم يعودون إلى عقولهم.

فعادت هند إلى الشرفة تتكئ على وحدتها، تواجه الندى الليلي بمزيد من الدموع، تحولت إلى صمت مطلق فنوبات من النهنهة ثم سهمت بنظرة محايدة لعدة أيام تاركة البول والبراز على ثوبها رافضة أية وسيلة لتنظيفها أو إطعامها،

حملوها إلى بيت النجدية مستندة علـــى الخادمـــات فســـكبت النجدية على رأسها الماء البارد وشدتها من ضفيرتها لتفيـــق من ذهولها وتقول "أمشي مشي أهلك ولو انكســـر ظهـــرك، ستعودين ستعودين، تطلعي تنزلي ســـتعودين، ابـــن عمـــك وستطلع روحك من بيته"، هند التي نظرت إليها وأجهشت في بكاء مرير سيحملونها عائدة إلى بيتها بعد عدة أيام مع عـــدد من أقفاص المانجو والذبائح وقطع الصابون بعد أن أطلقـــوا البخور في كل مكان وعادوا.

لم تبك بعدها، صارت الخادمات يلاحقنها وهي تخـــرج بالليل عارية تمامًا وتقف في الفضاء مذهولة وحينما تفيق من ذهولها لا تتذكر ذلك، ذات ليلة مشت حتَّى بيت النجدية بهذه الهيئة ووقفت أمام "لملوم باشا" الذي فـــتح البـــاب لطرقهـــا المتواصل ثم صرخ مناديا عليهن ليلقين عليهـــا أول مـــلاءة قابلتهن، كان بطنها منتفخا قلـــيلاً ولهـــا النظـــرة المحايـــدة المندهشة نفسه، أحطْنها بذهولهن وهي لا تعرف لماذا ينظرن إليها بجزع، لم تكن تبكي أو تصرخ أو تسقط علـــى الأرض كسقاوة متشنجة ومع ذلك قيدوا قَدميْها وذراعيها ووضـــعنها في الفراش وأحكمن غلق الباب، وبعد أن صار الـــذي فـــي

بطنها لحما ودما، قُدْنَها إلى البيت المظلم حيث حَلَلْنَ القيــود، وأَغْلَقْنَ النوافذ والأبواب وطلت "هند" من فتحة السقف التــي تتدلى منها السلال تتطلع إلى ظبية هاربة تركت وليدا صغيرًا لم يتعلم الركض في سماء سوداء قاحلة.

٧

ليس لسهلة صورة عرس بضفيرة من الفل أو تاج من الألماظ، كان لها فقط مفرش بلون البنفسج وستائر باللون نفسه، لم يغيروا من الغرفة التي سكنتها هند قبلها شيئا، ولا أدري هل دخلت فاطمة القرومية معها أيضًا أم لا، كانت دائمًا في الصور بهذه الهيئة، تجلس على كرسي، نحيلة كما هي الآن، ورثت من أبيها ذلك العود الطويل النحيل والأنف المعقوف والبشرة المتماسكة، كان لها رقبة ناقة كما تقول النجدية، تلك الرقبة المميزة التي لم تكن لأيٍّ من أخواتها، والعيون السوداء الكحيلة المبحرة، لم ترث من النجدية بياضًا ولا حمرة، ولم يكن شعرها كشعر هند أو سقاوة، ضفائر غزيرة، بل شعر فاحم كثيف وقصير، اعتدتُ أن أراها تلف الخصلات الأمامية في الجوارب القديمة المحشوة بالقطن لتصبح اسطوانية تلف عليها خصلات الشعر، لتصنع منها بوكلة على الحاجب بفرق جانبي في يمين الرأس وبمزيد من الجوارب المحشوة تلف الخصلات الخلفية لتصنع استدارتها وتمويجها، مفتونة بتسريحة ليلى

مراد، أو أسمهان، بثوب أحمر وبوردات بلون الفل يكشف ذراعيها وفتحة صدرها وينسحب أسفل ركبتها منفوشا بالجيبون، وبعقد من اللولي الأبيض حول الرقبة الممتلئة الطويلة، تجلس في الصورة وعلى ساقيها طفلة طرية بلون القطنة وهيئتها، في فستان من الكورشيه الأبيض تحملها باتزان وأناقة على الساقين المضمومتين كأنها لم تكن في الأيام سوى هذه المرأة التي تحمل طفلة، ولم أكن قط إلا على ساقيها في الغرفة التي لها ستائر البنفسج. كانت تجلس أمام فراشها صباحا على كرسي عميق يواجه النافذة المطلة على بعض أشجار التوت والعنب، كنت بجانبها دائمًا عندما يدخل كل يوم حين يشعر باستيقاظها وأنها ارتدت هذا الروب السماوي الذي يزيدها اتزانا وأناقة رافعة شعرها، كاشفة تلك الرقبة العالية والعينين المتسعتين العميقتين.

كان يدخل بعد أن يتأكد من أنها سمعت طرقه، لينحني فوق ابنته مقبلا عنقها ومطوحا إياها في الهواء، بعدها قد يقول كما كانت دائمًا تسمعه "بنت عمي بخير" "بنت عمي تريد شيئا" وعندما تجلس في التراس ضحوا إذا كان الشتاء،

وليلاً إذا كان الصيف، تسحب خيوط الكانفاه، كـــان يـــركن ظهره إلى الحائط ويجلس مفترشـــا الأرض ليتحـــدث عـــن المهاري والشواهين أو زرع نخلات جديـــدة فـــي الفنـــاء أو رحلة صيد مقبلة. كان يتلكم دائمًا بلهجة غير محددة ويبـــدو كأنه يحدث نفسه وكان لابد أن تكون مهرة هناك ليقول "يـــا أميرة أبيك عمك مبارك يقول إن جبل عتاقة مـــازال مليئـــا بالجوارح، الصقر يُولِّف على المهجور، والطيرة الحـــرة إن عبرت البحر تسقط من التعب عند أول تلة"، "الســـفرة التـــي مضت أطلق عمك مبارك صقره الرامح خلف ســـرب مـــن الحباري، ذقت الحباري يا حبيبة أبـــوك، الســـفرة القادمـــة أصطاد لك واحدة بشرك، الخرطوش يسقطها ذبيحة، المهم يا صغيرة، عمك مبارك قال يا رامح شوف شغلك، كثيرًا قلـــت لعمك مبارك صقرك خائب ولم يصدقني تتصورين يا أميـــرة أبيك جاءها الصقر من خلفها، والحباري إذا رأت الصقر من خلفها بزقت عليه ماء يشبه الصمغ يلصق ريش أجنحتـــه ولا يستطيع الحركة فيسقط، قال عمك مبارك يسميه "الـــرامح"؟! ساعتها سقط وعليه كومة من البَزْق الصمغي وأبوك يضحك حتى شرق من الضحك، ليلتها ذبحنا حمامنا الـــذي خرجنـــا

نتصيَّد به، وشويناه وعدنا. قلت لعمك مبارك لو يسقط في ملفافنا شاهين سقاري أو كوهية حمراء، كنت زماني شيخ العربان عارفة يا أميرة، الأمير "لبد" يشتري الكوهية بخمسين ألف، قطعة واحدة، والله أبوك لو ربنا أعطاه فقط كوهية وشاهين، كان صار شيخ العربان "ذقت الحباري يا حبيبة أبيكِ ، لحمها مثل الرومي بالضبط، ولونها أبيض" في دار جدك كانت هناك قاعة مليئة بالحباري، كان يُرَبِّيها كما نربي الحمام، الله يرحم جدودك يا بنت عمي الله يرحم الغاليين" عند نهاية الجملة فقط يتضح أنه كان يحاول أن يكلم صاحبة الثوب السماوي، وأنها تدرك ذلك، ويبدو الأمر كما لو أنه لا يعنيها، فقط تراقب بأسى صفقاته مع النساء القصيرات اللاتي يعطينه الأوراق بعد أن يختمن ويبصمن، بائعا لهن هذا القيراط أو ذاك، محاولا أن يتقي نظراتها بأن يضع الصغيرة في حجره مرددا أهزوجته المفضلة.

"الراجل إن خس ماله من إيده حيلته زهيده.. الراجل الحق مثل الذهب في المراود، عن راد ربك ينكسر وينصاغ صيغة جديدة"•.

كان هناك عمات كثيرات وبنات أعمام يجلسن في تراس النجدية يركضن الصغار حولهن، يَسْكُبْنَ فناجين القهوة ويتحدثن عنها، متى سيعوض الله عليها بالخلف؟! تراقب هي خطوات مهرة المتسارعة في ضجة اللعب وتقول إنه فعل، وأنها لا تريد أكثر من وجودها في حياتها، وحينما كبرت قليلا وكانت مهرة تجلس بعيدا عنهن، من فتحات النوافذ كان يمكنها سماع كل شيء، صارت تسمع سؤالا أكثر دقة عن كونه ينام في خيمته، ولا يبيت في غرفتها، تجيبه بخفوت "كل واحد ينام على الجنب اللي يريحه"، وكانوا لا يستطيعون التكهن وسط ترفعها عن الكلام، هل كان ينام في غرفتها بعض الليالي أم أنه لم يفعل. بعد ذلك وحينما كان عليها أن تفهم وحدها اكتشفت أنه لا يجرؤ على التحديق في وجهها أبدا، وأنها لابد أن تكون بينهما إذا أراد أن يجلس جانبها،

• خس: قَلَّ والمعنى أن الرجل الحقيقي مثل الذهب يعاد صياغته بعد أن ينكسر.

ليتحدث عن كلبه السلوقي الذي دربه على ملاحقة الجرابيع، أو أنهم فقدوا طريقهم في سفرتهم الأخيرة، ولـولا أن "أبـو شريك العيادي"، وهو دليل قوافل قديم كان يعرف مواضـع النجوم لهلكوا. كان يبدو كطفل يثير انتباه أمه، أما سهلة فقـد كانت تركز نظرها باتجاه شيء واحد بعيد، وتهـز رأسـها موافقة، أو تضع عينيها على حركات مهرة كأنهـا الشـيء الوحيد الذي يخصها في هذا الموضوع، كانت تمتلك كبريـاء ناقة حرون، ساكنة وهادئة ولا مبالية.

الجدة فاطمة التي رشت لها الرشوش؛ كي تذهب عنها الكوابيس ويهدئ الله سرها، وقطعت لها التبيعة التـي تفسـد عليها حياتها، تلك الروح السفلية المؤرقة كانت تقول عنهـا "مسكينة.. يا بنت الغاليين"، وربما أرادت مرات أن تقول لها إنه ما عاد يجلس في بيت القرومية على الإطلاق وأنـه قـد يكـون الآن زوجـا صـالحا، لكنهـا لم تكن توحي بمثل هذا الإنصات، النجدية نفسها، وأمام تحفظ ابنتها لم تكن لتعرف هل مازالت ابنتها الصـغرى بكـرا أم دخل بها، كان يغيب عنا طويلا ثم تهب عليه شهوة الاقتراب من مجلسها فيأتي ليتأمل الرقبة العالية والعينين المبحـرتين

ويضع مهرة في حجره أو يمسِّد شعرها بعد أن صارت أطول قليلا ويقول "يا أميرة أبيك، مهرتك امتلأت وإن جاء ولدها دهمة• مثلها فسيكون لديك أعرق مهرات العرب"،

وقد يجلس الساعات ليحكي لها الأحاجي عن الذي:

يعدي على الموج يرمش

عامدا جبالا خوالي

لا زول جابه من العش

ولا نال ما فيه والي

وبين أصابعه التي تلعب في شعرها تقول: الغزالة، فيضحك، و "وهل تعبر الغزالات الموج وتسكن الجبال يا أميرة العربان؟"، "المهرة"، "وهل المهرة تكمن في العش يا أميرة العربان؟".. "الصقرة"، "صح يا غزالة أبوك"، الصقر يعبر الموج ويأتي من بلاد الثلج ليحط على جبالنا العزلاء، أتعرفين يا حبيبة أبيك لماذا لا ينال ما فيه والي ولا أمير ولا ملك؟!.

تقرفص في حجره متسائلة أكثر "لأن الصقر عزيز لا يأكل مِنْ فَضْلة أحد، ولابد أن تتركي له الطيرة التي يمسك

• نوع من الخيول.

بها ليأخذ منها أول نسرة، بعدها يتركها هو لك" يحملها على ظهره ليعودا إلى خيمته حيث العمة "مزنة" جالسة تـبط لـه خبز الرماد وتغلي القهوة.. وتتناولها منه لتغني لها:

عينك عين الصقر الحايم

واحنا ناس رقاق عزايم•

العمة "مزنة" التي لا تكـف عـن تشـبيهها بالصـقرة وعينيها السوداويين والمهرة والمها. كانت لا تكلـم "سـهلة" على الإطلاق ولا تدخل البيت. فقط تجلس جانبه تشـعل لـه النار وتسقيه الخضيض وتأتي من العلواية التي تسـكن بهـا وحدها، على حمار بخرجين وفي يدها عصا غليظـة، تمـلأ خرجيها بخبز الشعير وجميد ولبن خضيض وأكلات أخـرى لا تعرفها، وتسير بثوب أسود متمنطقة، بنطاق من الخـرز الأحمر ومازال ذهبها في صدرها يصل إلى وسطها، وحـين تعبر الشوارع التي صـارت مليئـة بـالغرابوه والبرامـوه والشوام، والمهاجرين والفلاحين الذين لا تستطيع أن تقـول إنهم "حبايبنا وخدامينا" كانوا ينظـرون إليهـا باسـتغراب.

• لك عينان مثل عيني الصقر ونحن عزيمتنا رقيقة لا نستطيع مقاومـة فتنتك.

العجائز فقط سيقولون لها "اتفضلي يا ستنا" قبل أن ينهـــرهم أولادهم مؤكدين أن كل واحد سيد نفسه الآن.

بعد أن صار أكبر قليلا وصارت أكبـــر أيضًـــا، كـــان ثلاثتهم يجلسون في شرفة لمنزل قـــديم يطـــل علـــى نيـــل ومراكب، وكانت الحوائط باهتة والإطارات التي عليها لملوم الباسل و "بيير كام" وهند وانشراح وتلك الصـــور الأخـــرى تبدو أيضًا قديمة وبلا فخامة مجرد أشياء تعسة تحتاج إلـــى الكثير من الترميم، مثل الحمَّامات التي تخرج منها صراصير حيَّة وأسراب نمل وأثاث عليه بقايا سنوات كثيرة أتعبته، ولم يكن شيء بها سوى النهر والمراكب، حتى إطـــار الشـــرفة الحديد المعشَّق بالخشب صار وسط البنايات الرخامية التـــي أحاطته بائسا وأكثر تعاسة من جلستنا الثلاثية على كراســـي من البامبو الذي اكتسى لونًا ترابيًا دَاكنا.

كان يأتي فقط ليتفقدهما قائلا "بنت عمي بخير" ويقـــول لمهرة "يا ستْ أبوكِ تأخذي العين هذه ولا العين هـــذه" كـــان يبدو أكثر ضعفًا حين يحب أن يقول لها إنه سافر بلادًا بعيدة مع الأمير "لبد" وهي تساعده في حمل كـــوب الشـــاي بيـــده المرتعشة ليقول "آه لو فرخة سنقارية يا أميرة، كـــان أبـــوك

صار شيخ البدوان" صارت تناوله أيضًا علبة دخانـــه التـــي ينسى مكانها وهو لا يكف عن لضـــم الســـجائر فـــي فمـــه والسعال، وبصق أشياء موجعة من صدره، قبل أن يمضـــي كان يتفقد بعينيه شَيْبَهَا الذي لم تصبغه بالحناء تركته خصـــلة بيضاء على جبهتها، رافعة شعرها فـــي "التربيـــون"، ذلـــك البونيه الذي يضم شعرها كاشفة الرقبة نفسها التي ترك عليها الزمن خطوطا زادتها فتنة وترفّعا مثلمـــا زادتهـــا الملابـــس الغامقة الأكثر احتشاما مزيدا من الكبرياء.

٨

"غلاك لا تخاف عليه

مدسوس بين عيني وهدبها"

يهنهن متكئا على رسغه، بثوب أبيض وعقال تتسدل من تحته العمامة البيضاء التي يطويها من الجانبين على رأسه، في فمه سيجارة مشتعلة يثني كفة يده المواجهة للكاميرا حيث يقف طير جارح، كان يطلق عليه دائمًا "الحرّ" يقول الحر ولا نعرف هل هذا نوعه، "طير حر" أو لقبه "الحرّ" يروضه حتى يصبح على ثنية ذراعه إذا طواه، ويطير ويحط على كتفه متى مشى، يحط ويطير ويعود إليه، يجلس ودائما خلفه بيت الشَّعْر وأمامه الأرض الرملية المواجهة، حرص دائمًا على أن تظل رملية وبلا غرسة ولا شجرة، فضاء تحوطه الأسوار التي صارت بفعل الزمن مهدَّمة وعديمة الهيبة، تضعها مهرة في مواجهة مكتبها، بإطار قديم له لون الفضاء الذي تحبه، وحين تدخل سهلة محاولة تحاشي النظر إلى الحائط الذي يواجهها بصورته، تعرف أن عينيها تهربان،

ولكنهما ستخذلانها مرة بعد أخرى وتتسللان لتراقب السيجارة في فمه والحر على ذراعه، وخاتمه الذي لم يخلعه من يـــده واضحا في ثنية الكف، حين فارق بيت الشَّعْر وجاء لـــيجلس بجانبها في البلكون كي يدَّعي أنه جاء ليشرح لي أهازيجـــه لتصير ابنة عرب حقيقة ثم يهنهن:

"غلاك لا تخاف عليه

مدسوس بين عيني وهدبها".. أو

"القلب يا بعيد الدار

يمسي معي ويبات عندك"

تهز رأسها كما يفعل وهذا الوجع يركل صدرها بينمـــا تدير سهلة وجهها بعيدًا متأملة السماء أو الممشى متشـــاغلة بفرك أصابعها ويحاول فك شـــفرة أهازيجـــه.. "محبتـــك لا تخشى عليها فهي مخبأة بين عيني وأهدابها، أو القلب يا من بعدت دياره، يمسي معي ولكنه يبيت عندك".

يمسح لعابه بطرف كمه ويتسنَّد على عصاه، كان هـــذا قبل أن يرقد والسعال الذي يحتل فواصل الجمـــل يصـــارع لهاثه، وقبل أن تقوض "سهلة" بيت الشعر نهائيا لتفـــتح لـــه غرفة بستائر بنفسجية لها باب يطل على شرفة من تعاشـــيق

الخشب والحديد المطروق، زرعت في جنباتها الريحان وتركت أشجار اللبلاب تتهدل على قوائم الخشب القديم الذي أحرقته الشمس، فتحت له النافذة التي تواجه الفراش، فغردت عصافير كثيرة، وكان يراقب السماء والطيور التي ترفرف بعيدا ويقول "القاعة الفسيحة التي كان يتكئ فيها على البساط كانت ممتلئة بقصبان الملح. قال : خمسة عشر جارحًا تقف على القصبان، كي لا يفسد الفطر بطن الساق، أدار سيجارته في فمه وهو يتفقدها.. ثلاثة شواهين بيضاء خالصة، أتى بها "الأمير" من كندا، تفقَّد مخالبها ومدامعها، كلها كانت ابنة العام الأول، المكيِّف الذي يدفع بالهواء البارد، كان يخفف صهدة الأرض التي تفوح بها هذه الصحراء، في الجانب الآخر من القاعة، كانت خمس من النداوى* الحُمْر القانية وفي ظهورها هذه النقاط المرشوشة كالندى باللون الفاتح، يهز يده التي تلضم الدخان، ويقول لمن حوله: "النداوى شرسة، هذا الندواى الأقرع أكثرها شراسة". القرة السنقارية السوداء التي كان الأمير يعشق النظر إليها وقفت وحدها،

يقول إنها "نادرة ، كوهية• خالصة السواد"، صف بقية الصقور في جهة واحدة، قال "الصقر أشجع، لكن الشواهين أذكى"، إنها تولّف على صاحبها وتفهمه بمجرد النظر، ركن ظهره إلى الحائط ليحيط بها بنظره وجلس يخصف في شراك كثيرة من سبيب الخيل• ويهنهن بمجاريد عن العيون والمخالب والمنصار، كانوا حوله، وعلى أعينها هذه الغماية الجلدية السميكة التي تحجب الرؤية، جائعة ومُنهكَة لتستجيب له ولتدريبه، علا صوته أكثر لتتعرَّف نبرته، كان مولعا بالأشعار وحفظها، كما كان مولعًا بالمشهد الذي هو جزء منه الآن، طيور كثيرة يسميها كما يحلو له، مبتدئًا بالسين، تلك السين الموجعة كحروف اسمها العصي البعيد.. سعد، سبع ، سهم سريع، سرد، سند، تعرف الجوارح الفرق بين حروف كل واحد فيها، يهتف بالاسم واضعا أمام صاحبه الحمامة الحية المعقوفة الجناحين تقفز هاربة متحاشية نقرته المميتة في مذبحها، بين الرأس والجسد يغرز منقاره الحاد وعلى حواشيها يترك أظافره تنزع الريش ، فاتحا في صدرها تلك

• النداوى والكوهية: أنواع من الطيور الجارحة

• السبيب: شعر ذيول المهاري.

النسرة التي يكتفي بها من غنيمته، سيقول إنه "حرّ" لا يأكل إلا حيا وإن قتله الجوع فلن يرضى بجيفة، بعد ذلك سيترك للجارح متعة إطلاقها من جناحيها، وربط ساقها بطرف خيط يربطه في وتده، ليترك له متعة إمساكها بمخالبه، مطاردتها ونشب أظافره في لحمها، ثم يعود متشامخًا على وتده، لغني له بعدها.

وخايف من الحرَّ القاتل

"نداوى"• متكوبى بحَمَار

نداوى ماهوش ساهل

مربَّة في كارة بزَّار

يجيب الخارم والجافل

وحنَّى كفه والمنصار•

يراقب هنهنة الحروف ومخارجها ويردد المجاريد على لسانه ليعرف كل جارح أنه يشجعه فهو حرّ، قاتل ليس سهلاً

• نداوى: نوع من الصقور – متكوبى: مخضبة.

• مربة: تمت تربيته – كارة بزار: مكان للتدريب. الخارم: الطائر. الجافل: الخائف. المنصار: المنقار.

لأنه تربى على يد معلم حاذق، يأتي بالطائر الخائف ومن دمها تخضب كفه ومنقاره.

يهزج لجوارحه بهيام محب، يمكن أن يقضي الليل الصحراوي الطويل في هذه الأرض الرملية التي لا يدب فيها سوى بعض الخدم الهنود والآسيويين، يرى قلاع وقصور الأمير بعيدة، يضوي فيها النور وترمح في طريقها السيارات الفارهة ولا تكف الضجة، يراقب العتمة الجبلية وأكواب الرمال في مد البصر ويقول لـ "عُطيْر" الشاب السوداني الذي يرافقه في تدريبها:

"يا عُطيْر كان لجدي الشافعي صقر يدعى القنوع الله يرحم الغاليين، كان يبرك على الصيدة فيحللها ويشرب فقط بضع قطرات من دمها ولا ينهش صدرها أبدا، جدي رحمه الله هو الذي يلقي له منابه وهو واقف على وتده، عمّر معه اثنا عشر عاما حتى طفقت بثرة في حبة ساقه بين مبضع مخالبه، قالوا المسمار ينخز في عظام الساق حتى يهلكها، صار "عجوزا" في بضعة أيام وفي ساقه تكبر البثرة وتصبح في حجم الليمونة حتى وجدناه في الصباح كومة ريش متخشبة"، يهز عطير رأسه وهو يلوح ببصره باتجاه الضوء

البعيد "الأمير عاد من سفرته" يكمل تدخين سـيجارته وهـو ينتقل من جد إلى جد، يتوجه إلى الصـبي الأسـمر ويقـول "جدي منازع الله يرحمه رحل كثيرًا إلى دياركم، هل تعرف "ود مدني" يا عطير جلب منها أم العبدة التي نشأت في دارنا كان اسمها انشراح. عطير الذي كان يحدثه عـن السـيارات المكومة خلف القاعة متآكلة من الصدأ أو العطل، قال له إنه لا يعرف "ود مدني" ولا انشراح، ولا جده هذا، أو ذاك، لقـد جاء ليأكل عيشا وليس لدراسة تاريخ عائلته، ابتلـع القهـوة المرة دفعة واحدة وهو يقول له "يا عبد فيك ريحة التعالـب" عطير الذي سحب قدميه ووقف بعيدا يتأمل القلاع والعربات. تركه لهذا الليل الصحراوي وحيدا يرصد الكائنات الرابضـة بتشامخ على قصبان الملح كأنها فزّاعات مرصودة لإخافتـه، في النهار يحوّل القاعة إلى سرك يطلقها واحدا واحدا مناديـا على كل جارح باسمه، سند، يا سند، هل تبصر هذه الحمامة، هاتها يا سند، يطير الجارح ولكنه لا يتوجه إلى فريسته بـل يحاول الفكاك، يتخبط في السقف، يجذبه من الخيط الذي لـم يزل حول ساقه، وهو يكمل "يا سند أنت ولد شقي، ولن تأكل

شيئا ستنظر لسبع وهو يأتي بها" "سبع، يا سبع.. أنت أذكى من صاحبك.. هاتها".

السنقارية وحدها كلما رأت الضوء، وأحست ببراح الخيط حول ساقها تخبطت بين الجدران، يقول للأمير الذي جاء يتفقد بَضْعَتَهُ ومرانها ومن خلفه وقف رجال كثيرون: "إنها غبية، حمقاء، كسرت ريشة من قوادمها، جلست أجبر فيها عدة أيام وأعيد لصقها بالصمغ وربطها بالخيط، لكنها حمقاء، لم تستجب للتدريب حتى الآن".

يهز الأمير رأسه ويقول: إنه يعشق النظر إليها، (الناقة الحرون والمهرة والطيرة الحرون.. تسبي لب عاشقها) ضحكوا خلفه، وهز الأمير رأسه، حتى وهي مجبورة بالخيط والصمغ وقفت متشامخة، عزيزة وقصية، قال له، ماذا أسميتها.. ابتسم "سهلة"، أسميتها "سهلة".

الغزالات تركض، أسراب طيفية بعيدة، صخور سوداء تشق الوادي والجبل، تصعد باتجاه عيون الماء التي أسالت ماءها بين الصخور المرتفعة وانزلق على الحصى الندي، من الهيلكوبتر، كانت صفحة الوادي في غبش الفجر ناعسة فاختار السفح القريب، نزل الكثير من الهنود والآسيويين

بعيونهم الضيقة جالوا على السفح، تفقدوا آثار الهوام "قالوا وادي الضباع"، وكان الفضاء ليس به سوى بعض أشجار الغردق، والأشجار الشوكية التي أوقدوا فيها النيران لتهرب الهوام، وتصاعد الدخان الكثيف، بعدها فردوا البُسط ونصبوا الخيام المكيَّفة ومبردات الماء، ومدُّوا خوازيق الشواء وجلبوا من الثلاجات اللحم المذبوح، واختلطت رائحة الشواء بروائح الهيل والحبَّهان والبن المحمص، بعدها استعدت الطائرة بأجهزة الرادار والكاميرات التي ستصور كل المشهد ليعيدوا مشاهدته مرات. الأمير ساندا ظهره وفي يده هذه النظارة الُمكَبِّرَة. يرصد التلال الخفيضة التي كان على القطيع أن يعبرها قبل أن يصل إلى الماء، السهوب التي انتشر فيها الكلأ القليل كانت مكشوفة أمامه، وقف على التلة الأكثر ارتفاعا وأطلق طيوره من أقفاصها وأزال الغماية عن عيونها، ثلاثة، ثلاثة، هكذا صنفَّها لتصير فرقا متتابعة، الجوارح التي خرجت متوجهة بأجنحتها الراعشة إلى القطيع الذي ركض أمامها، بحثا عن الشقوق العالية ترك لها الصغار التي أربكها الطير وهو يخبط بأجنحته على عيونها، كل ثلاثة تحلَّقت حول غزالة صغيرة تدفعها بأجنحتها في

خبطات متتالية، يصعد جارح ويدور حـــول رأســـها تاركـــا للثاني فرصة الرفرفة بين عينيها، بينما الثالث يصعد ويهـــبط دافعا أظافره فوق جبهتها، والكلاب السلوقي التي انطلقت في إثرها تجذب السيقان الباحثة عن الهـــرب فتســـقط الغزالـــة منهكة، حيَّة، تحيط بها العربات اللاندروفر التي تصل بعد أن تكون الفرائس منبطحة معْقُوفَةً من الساقين وتتمدد كالذبيحـــة مطروحة في العربة، القطيع الذي كان يتـــوهج منـــذ قليـــل بالشمس القرمزية الغاربـــة خلَّـــف وراءه تســـع غـــزالات صغيرات مطروحات في قاع العربات التـــي تنســـحب إلـــى الخيام.

الجوارح التي عادت إلى قُصبْان الملح مكتفية بنســـرة من صدر الحمامات التي أطْلِقت ابتهاجـــا بغنيمـــة القـــنص كمكافأة لها على استبسالها في القتال كانت تقف وترفع رأسها بشموخ، وكان صدره الممتلئ بالدخان وبفرحة النصر يستسلم للهاث ويركن ظهره إلى ســـياج الخيمـــة مراقبـــا أشـــرطة الكاميرات وهي تعاود العرض مرة بعد مرة وسط تصـــفيق الأمير تارة وصوت جلسائه، كان يراقب بحبور التعليقـــات، "هذا الشاهين الأصفر النضير مثل الجنيـــه الـــذهب"، و "الله

الصقر الحرّ صيود، والأحمر أصيل".. " لكن الحـــرّ يعمّـــر أكثر من خمسة عشر عاما"، "الطير يصـــيد أعوامًـــا لكـــن القناص لا يقنص إلا إذا كان حيْله شديدًا ابن عام أو عامين"، كان يريد أن يقول إن جده منازع كان له صقر حر عمّر أحد عشر عاما كان اسمه القنوع، لكنه لم يقل، كان يلهـــث فقـــط وينظر إلى السنقارية السوداء في خيطهـــا وحـــول عينيهـــا الغماية وقوادمها المجبورة، ساكنة لم تشارك في شيء، حلقت فقط في السماء، وخبط جناحيها فجذبوا خيطها وقالوا "هذه لا تُطْلَق ولا تنقاد، حرون لا يرد رأسها إلا الجوع"، ربما تمنى أن يجلس جوارها الآن ويقول لها "بنت عمي طيـــرة تســـبي العقل"، لكنها كانت بعيدة، وحده الأمير يقول له بـــين حـــين وآخر، "هذا السفاح الذي ينهش وجه الغزالة بمخالبـــه مـــاذا أسميه يا ابن العم"، سيجيبه بين حين وآخر سعد، أو سرو، أو سعود، ويكتفي بأن يحرك إصـــبعه بلطـــف علـــى ريشـــتها المكسورة متوجسا من ضربة أظافرها التي تهاجم بهـــا كـــل الكائنات التي تقترب منها في ظلامها الطويل.

كيف يستجيب لتلك المقامرة، كيف يقف هنـــاك علـــى الربوة والأمير يناديه، "هات جوارحك يابن العم"، الجـــوارح

التي عرفت الآن رسغه فوقفت مطيعة لإشارة يده، الجوارح التي أسماها كل الأسماء التي كانت لأحلامه وتحلقت حوله كصبيان صغار ولدهم من صلبه، جيشه الذي صار به قائدا يدير تلك المعارك المهمة أخيرا ويؤكد فروسيته، كيف وهو الذي كان منذ دقائق يقول على كل اسم صفته التي راقبها تنمو وتلتصق بصاحبها، "سعد أشرسها يدافع بمخالبه ولا يترك فريسته إلا وعلى جلدها أثر نهشه، سرور أذكى، بضربة واحدة في منطقة محددة يعرف كيف يسيل دم ذبيحته ويلعقه، بضربة واحدة يحتضنها بمخالبه ومنقاره في مقتلها"، لكنه يستجيب مرغما، يقف الآن ليقول الاسم فقط اسم طائره ويكشف غمته والأمير يطلقه في الهواء بعد أن يسأل عطير: "بكم اشترينا هذا؟" الأرقام التي تتناثر بلا معنى لا تشغل سوى عطير الذي كان يركن ظهره إلى الحوائط ويحدث نفسه أنه لو امتلك نفاية السيارات الصدئة لصار أغنى واحد في بلدته، ولو امتلك هذا الشاهين الأبيض لصار صاحب الأمر والنهي، لكنه كف عن هذه الافتراضات، كان الأمير يقول إن "الإبل في وادي العجاج إكثار" فلا يعرفون هل يشير إلى ماله أم إلى طير السماء، وحين انتهت اللعبة كان الأفق

الغائم تحوم فيه الطيور التي كانت حتى اللحظة السابقة أسيرة إشارة معصمه، تحلق وتدور حول نفسها وتحوم حول الخيام المنضودة وكان الأمير يضحك ويقول "الطعمة تكسر العين" كانت الطيور التي لم يزل يسميها حرّة تلتاث في السماء الواسعة بعد أن اعتادت الحمامات المعقوفة تحت أقدامها، والوقوف على الأوتاد وانتظار إشارة صاحبها لتنفذها، تعلو وتهبط متفقدة الوادي الذي صار بلا إيل ولا أسراب غزالات، فضاء موحش بالعربات اللاندروفر وخيام تفوح منها الضحكات.

السنقارية وحدها أبقاها في مربطها وحيدة معقوفة مُهْتَاجَة من رفرفرة الأجنحة حولها، وكسيرة بعينيها المحتجبتين، قال الأمير "هذه الدهمة السوداء هي التي إذا أطلقتها فلن تعود "المرأة الحرة والصقرة الحرة أعْند من جبل الصوان" يضحك بتلذذ لمرآها، والشواء المنصوب والظلمة التي تقطعها الكلاب السلوقي بنباحها والطيور التي لم تزل غير قادرة إلا على الدوران في فلك الخيمة، كان الأمير يقطع من الشواء ويلقم كلابه وهو يقول "كلب ينبح لك خير من كلب ينبح عليك" من حوله سيؤمنون ويؤكدون أنه

سيجمعها كلها مثلما يجمع القمري حبات القمح فقط يطلق في مطلع الفجر سرب الحمام المفخخ بالشراك، كانوا يضحكون. في غبشة الفجر صمت الضحك وانطلق الحمام وعلى جناحيه الشرك الذي يشبه شبكة من خيوط شعر ذيول المهاري، زلقة وقوية، الجوارح التي جاعت، ألقت حوافرها في الشراك لتعود إلى أقفاصها ساقطة على الأرض من جديد؛ لتؤكد لهم أنه حتى الطير الحرّ يمكن أن تعققه من طعمته، لم يحك لهم بعد ذلك عن جده الشافعي الذي كان يوقد النيران ليعبر الناس ويقولون نار آل الشافعي، لم يطفئها جدب ولا غيث، سيقول أبياتًا كثيرة عن الكريم واللئيم والريح التي تندار وجدب الأوطان الذي يرمي الحر على بلاد الغرباء، قال أشياء غير مترابطة ولكنهم كانوا مأسورين تمامًا ببلاغته:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى

وفيها لمن خاف القَلَى متعزَّلُ

لعَمْرك ما بالأرض ضيقٌ على امرئ

سرى راغبًا أو راهبًا وهو يعقلُ

وكانوا يهزون رؤوسهم لمخارج الألفاظ التي تشهد بفصاحته، ثم عاد، كان يمشي طويلا ولكنه لا يصل إلى

شيء، على فراشه الذي نام عليه أخيرا وسط الستائر المسدلة بلون البنفسج كان يحلم بطيرة سنقارية عصية ترفرف بجناح مجبور بعد أن انكسرت قوادمها، لم يعــد يكــرر أحلامــه بشاهين أَلْبِيٍّ خالص البياض يبيعه بربع المليون ويصير شيخ العربان، صار يقول فقط إن

المال يسقِّم• كل عويل

وهو بين الناس دَوَّار

ولكن

الساس• اللي مبناه عويل

معيب وإن علَّيته ينهار

العمة "مزنة" فقط ستتولى – وهي مقعدة أسفل قدميه – تفسير أن المال قد يرفع العويل لأنه يدور بين النـــاس يـــوم معك ويوم مع غيرك، لكن الأساس الذي يرفع المبنـــى هـــو الأهم، يراقب يدها التي اقتربت لوضع الطعـــام فـــي فمـــه ويقترب بصدره اللاهث دون أن يقوى على التحديق في تلك العينين الآسرتين، سيقول "بنت عمي تعبـــت معـــي"، فتهـــز

• يسقم: يتعب، عويل: قليل الأصل

• الساس: الأساس.

رأسها أنه لا شيء، المهم أن تكون بخير، ستقولها بسماحة وربما بمودة، تسمح له بأن يستعيد بلاغته ليرد على مسمعي:

وأفنيتُ عمري بانتظاري وعدها

وأبليتُ فيها الدهر وهو جديدُ

تلك المرة لن أحتاج إلى عَمَّتي مزنة كي تهز شنافها وتشرح، كانت تسحب يدها من يده المرتعشة ببطء تاركة فضاء الغرفة، تخلع العمة مزنة نعلها وتفترش فروة الضأن، وتجلس قبالة فراشه وتسند رأسها إلى الحائط متأملة وجهه الشاحب الذي يطارد طيف صقرة سنقارية حرون بأشعار يجتهد في أن يستعيد نسبها إلى أصحابها، فهذا مجنون ليلى وذاك مجنون لبنى، وهذا من هزج البدوان، كان يعالج ميلها عليه بقرص الدواء بتلك التنهيدة الموجعة..

"الله يعلم أن النفس هاكلةٌ.. باليأس منك ولكنّي أمنّيها".

تصبح التجاعيد الدقيقة تحت عينيها أكثر وضاءة، ترتعش العضلة التي تحيط ابتسامتها لتصبح أكثر هشاشة وضعفا، قد تبكي في غرفة الإطارات وعلى فمه كانت خراطيم الأكسجين تمتد إلى الرئة المتخمة بالدخان والوجع. يشهق تلك الشهقة الأخيرة طائرا مع جوارحه خلف صقرة

سنقارية عنيدة، يمضي بعيدا لتستطيع سهلة بنت الباسل أن تبكي بحرية أكبر دون أن يطلب منها ذلك، تصبح أكثر هدوءا وحزنا وهي تراقب صورته متكئا في فمه سيجارة وعلى رسغه (الحرّ) وفي يده الخاتم الذي ستضعه في إصبعها حينما تفتح بابي لتواجهها أمام طاولة الكتب، فتدير حدقتيها بعيدا، وتغلقهما ريثما تستعيد أنفاسها الرتيبة.

٩

مهرة بنت آل الشافعي التي ورثت بيتين، واحد على منيل الروضة لم يعد يسكنه أحد، وآخر يشرف على خليج من الرمل كان يسمى إقطاع آل منازع، ورثت أيضًا بناء قديمًا يواجه بيت جدها يسمى المضيفة، تلك التي كانت مسقوفة بالقرميد ومصقولة بألواح الخشب، وعلى حوائطها تلك المرايا التي لم تعد تعكس سوى غبش رمادي، حين تتفقد الحجرة التي تطل على مربط الخيل من جهة وحديقة المانجو من جهة أخرى. سيقولون لها إن بيير الذي سمى نفسه سليمان كان يسكنها، على الشرفة الضيقة مازالت شجرة المانجو الهندي التي ربما تسلقتها هند وربما تبعتها سهلة بخوف أكبر، يرصدان من خلال حديد البلكونة حركة ريشته على الأوراق المحددة بالرسوم التخطيطية التي ينقلها من جداريات المقابر التي تعمل بها البعثة الألمانية. كان صهيل المهرات في المربط وعواء كلاب بعيدة يأتيهما ولا تخافان، بيير الذي عقد حوائجه بعد فترة ممزقًا مزيدًا من الرسوم وقال للباشا أنه سيسير باتجاه الكفرة أو فزان لاكتشاف

الطرق القديمة للقوافل. وإنه سئم من محاكاة النقوش في بيوت الأموات، سيهز الباشا رأسه متحدثًا عن الجد منازع الذي كان يسير إلى هناك بقوافل الشعير والملح والأقمشة. ترك خلفه مزيدًا من القصاصات لرسوم غير مكتملة.

الصندوق الذي عادوا به دون صاحبه جرجرته هند واحتفظت بقصاصاته الصغيرة ثم انكفأت عليه مهرة من بعدها في محاولة لفك رموزه، لم تكن مذكرات كما حسبتها في البداية، كما لم يكن بيير بعينين زرقاوين كما تخيلته. صورة وجهه الذي تكرر عبر محاولته لرسم نفسه كانت لفتى صغير شاحب. أبو شريك سيقول لها أصفر في لون الكركم وشعره محلوق على بطحة بيضاوية وجسد أكثر تداعيًا، أصابعه هي التي أمكن تمييزها من جلسته ساندًا ثنايا وجهه على كفة أصابعه في صورة فوتوغرافية كان بجواره فيها أبو شريك وأمامهم وقدة عالية من النيران.

لا يعرفون لماذا جاء، سيقولون يرافق بعثة الألمان في البحث عن الدفائن القديمة، لكنه لم يكن يرافقهم، الذين دققوا أكثر سيقولون إنه اشترى من الباشا لفافة من كتابات الفراعين كان الجد منازع الكبير الذي رافق "دورفتي" في تل

المسخوطة يعلقه على عمود خيمته، "دورفتي" الذي يبحث عن المومياوات ويقول إنهم يداوون بها المرضى كان يجد دائمًا تلك الأوراق بين ساقي الموتى، احتفظ الجد بواحدة منها علقها في حقو على جدار خيمته لأن حرقها يجلب الفأل السيئ والإبقاء عليها يخيف الشياطين، وروى عن بئر "هديوه" حين كانوا يمرون عليه، كان في قاعها تلك الأحجار المنحوت عليها رسوم الفراعين وكيف كان ماء البئر رائقا وقريبًا لدرجة أنه يستطيع الذي يدلي رأسه رؤية نقوش الحجر بوضوح، اعتادوا بعد ذلك أن يلقوا تلك الأحجار التي سحرها الفراعين في آبارهم لأن لها فعل الشبة والمستكة، تجعل الماء رائقًا مثل الفضة، الجد الذي علق الأوراق كان يعتقد أنها تفزع رواد الخلاء ورد العين الحاسدة، سيقول له المسيو "أركان" الذي رأس البعثة الألمانية في تلال اللقايا إنها تعاويذ يقاوم بها الأموات الوحدة الطويلة ويتوسلون بها إلى الرب، فهز الجد رأسه وقال إنها تطرد الديدان أيضًا ألا ترى جثثهم تظل كقطعة ملساء من الخشب.

عندما جاء "بيير" بعد ذلك وقال إنه قريب للمسيو "اركان" فرش له الباشا المضيفة قائلاً إنه حبيبهم وكان يقنص

معهم في الأرض الخلاء أو يصطاد مع الجد الأرانب البرية بالنبال. ثم أشار إلى صورته التي تتصدر غرفة الاستقبال وهو يتوسط مجلس القهوة بجوار الجد، كان الباشا قد أعجب كثيرًا بالبايب الذي أهداه إليه لأنه كان من العاج الخالص وكانت عصا الأبنوس السوداء أيضًا مبهرة، لكنهم لم يعرفوا بكم علبة من الخرطوش أخذ ببير كام تلك البردية التي نقشها الفراعين، الباشا صار يضع عصاته بجانبه بفخر متحدثًا عن ود مدني ونقاوة ورحلات أجداده إلى بلاد الذهب، لن تجد مهرة البردية القديمة، لكنها فقط ستعثر في حقو من جلد الغزال كان معلقًا على أثلة عجوز على نَقْشٍ بدا لها أنه استنساخ لها.

ظل ببير يتردد على حفائر البعثة أيامًا طويلة ينقش جداريات ويرسل إلى الجمعية الاستكشافية المصرية تقارير مفصلة عن طبيعة الكشف ودرجة ثبات اللون، كف بعد وقت عن فعل ذلك حين غرق في رسم وجوه كثيرة كانت حوله، لم يبد ببير أكثر من هاو رافق كثيرًا من البعثات لأن كل الذي وجدته مهرة لم يكن سوى ملاحظات غير متعمقة ورسوم تخطيطية لجوانب الكشف. يمكن لمهرة إذا افترشت

مزيدًا من أوراقه الصغيرة التي دون فيها جملاً غير مترابطة ورسومًا غير محددة الملامح تستطيع التكهن بأن هذا الجالس بوجه أوروبي حليق يطل من مركبة تجتاز خارطة لمحـــيط هائج وأن تلك المرأة ذات الوجه المسحوب التي تركت لخفها الأحمر تحت الثوب المنفوش ملامح أوائل القرن همـــا أبـــوه وأمه.

كتب خلفها "لأنه أحب رائحة الطحلب ظـــل مســـافرا، وكانت تجلس أمام النار تنسج عبر إبرتها رداء للشتاء الـــذي بلا رجل بينما كان يحمل البن من اليمن والشاي مـــن الهنـــد والذهب من نقاوه والعبيد من كاجو. عندما صرت شابًا أحمل تحت إبطي مزيدًا من الأوراق في محاولة لرسم وجهها كان يحدثني عن شرف العمل في البحرية كنت أواصل اللوحـــات لنساء يشبهنها".

وجه مس مارتينيه بملامحه المحددة فـــي عبـــاءة مـــن الصوف وبعقال على جمل ربما في إحدى رحلاتها بمعبد أبي سمبل يعكس هيئة شابة جامحة تختلط في ملامحهـــا الأنثـــى بالرجل، الملامح الفتية تتحول إلى عجوز تجلس خلف طاولة ممسكة في يدها نسخة من كتابها "رحلتي إلى الشرق" ســـاندة

رأسها إلى وجه حتشبسوت الجرانيتي الصلب الذي وضـــعته أمامها، ستقول إنها أول رحالة في التاريخ، وإن في معبـــدها جدارية لأمجاد رحلتها العظيمة إلى بـــلاد بونـــت. مفتونـــة بالرغبة في المغامرة حملت أقلامها وكان معها عدد من هواة الرسم التخطيطي الذين رأوا في الفرعونيات مقاييس دقيقـــة لمراعاة الأبعاد وتوازنها، كانوا هناك قبل أن يبتكر فـــوجير عدسته الدرامية وقبـــل أن يكـــون هنـــاك محلـــول زئبقـــي أو زنكوغرافي، نقلوا مجرد خطوط أولية لبهو الأعمـــدة أو طريق الكباش في ذهبية باتجاه أبي سمبل أو جزيـــرة فيلـــة. يقضون الليل يرقصون على طنين بعوض النهر ويجولـــون في النهار ليرسموا صورًا أكثر تجريدًا وهم يتناقشون حـــول شامبليون وسير جاردنر ويلكسنون وكـــارتر، ويحلمـــون أن تتعثر جمالهم في الأرض الصخرية للبر الغربي وتنفتح على سراديب لمعابد سيكتب عليها أســـماؤهم ليعـــودوا محملـــين بتابوت ملكة بلاد بونت أو مكتشفين سر البقاء الأزلـــي فـــي تميمة "مر – سر – قت" "محبة الصمت" آلهة الجبانات فـــي طيبة مُتَفائلُون باقتناء هيكلها الضفدعي القاتم، لكنهـــا حـــين عادت لم يكن بحوزتها سوى الثرثرة عن صخور الصحراء

التي تشبه الذهب الأحمر، والألوان المتدرجة للمنحدرات الرملية وصفرة زهور المشمش مع امتداد لا نهائي للأزرق السماوي والزئبق النيلي أسمتها رمزية الألوان في مصر القديمة متحدثة عن سر المغرة الحمراء والصفراء التي يخضبون بها جسد الموتى كي يعودا إلى لون الصحراء التي يحييها النيل كل دورة إخصاب. ومستفيضة أكثر عن متعة الرحلة إذ توفر للحمار فيها سرج إنجليزي جيد أو باخرة ذهبية لتوماس كوك.

ربما كانت تستند إلى بعض التوابيت والعاديات التي ملأت بيتها، تلك التماثيل الصغيرة والحلي التي اشترتها من الأعراب بعقود خرز أو قطع فضية. وهي تخصص جزءًا من أموالها للجمعية الاستكشافية المصرية التي أوفدت "بيير" لجمع مزيد من القصاصات التي صار يكتبها ولا يرسلها محدثًا إياها أكثر في الخطابات عن نظرية ترميزات اللون التي صار يراها أقرب إلى السفسطة، كانت القبور المفتوحة حديثًا لا تمثل له سوى جثث لأموات يريدون أن ينفذوا إلى السماء، ويتحولون إلى نجوم أبدية لا تعرف الغياب، الأجساد التي تكومت أعضاؤها في الأوعية الكانوبية، القلب، الأمعاء، الكبد، والبطون المحشوة بالعطر واللفائف الكتانية التي تلتف

حول الجسد كانت تدفعه إلى تمزيق ما رسم، والكتابة لمس مارتينيه عن أشياء أخرى تستحق الاكتشاف كالحياة والموت. سيكتب لها "رسمت العقبان وهي تهبط بمناقيرها على جثة الناقة التي نفقت في طريق ما، إنها تهبط في الحال، كثيفة وكاسحة كالورثة تتقاتل وتتنازع على الجسد الميت وتخلفه وراءها مجرد عظام حين يهبط المطر ستزداد الهياكل بياضًا وهشاشة كالتي يتعثرون بها في الطريق فيتأكدون أن طريقهم صحيح وأن كثيرًا من القوافل قد عبرت قبلهم، أو عن التجار وهم يتحركون بالقوافل ليلاً هكذا قالوا حاملين الماء معهم ويسترشدون بالنجوم كالبحارة، يرقب الدليل حركة الأفلاك ويتحدث عن النجمات البعيدة باعتبارها خرائط حركته.

رسم "بيير" كان مزيدا من الوجوه التي اكتشفوها في قعر صندوقه، كانت النجدية على فرشتها في البلكون وهي تعطس نشوقها، حوض الغسيل والأجسام الصغيرة التي شمرت سيقانها وبدأ العرق يتصاعد من فتحات صدورها، عمامات كثيرة تتطوح على تراب صحراوي وسط بيوت طينية واسعة وأحواش لها أسوار لا تكشف السماء، يتكهنون من التفرس

في الورق أن هذه أنف أبي شريك العيادي أو سمرة مبـــارك العبد محاولين الوصول عمن كان يخط الخطوط.

رسم عددًا من اللوحات لصقور ترمح خلـــف الأرانـــب الواجفة، وغزالات تختبئ تاركة على الرمال آثـــار أقـــدامها نقرات دقيقة تكشف المخابئ، كانت هند بوجه قطة قد اتخذت وضعها للرسم حين تسللت من على أغصان شجرة مـــانجو وتسلقت البلكون وتلصصت على رقدته ثم بدأت تلحس قدميه وأصابعه التي بلون الكركم، ابتسم في غفوته وضمها فدفنت رأسها في صدره وتصاعدت أنفاسهما بمـــا يشـــبه شـــخير الرضا.

استطاعت مهرة فقط أن تعثر في قعر الصـــندوق علـــى صور لامرأة أخرى لم تكن هند ولا مس مارتينيه ولا أمـــه، كانت لها رقبة الجازية الشريفة وقصة شعر ليلى مراد مـــن المؤكد أن هند التي فرزت الصندوق أكثر من مرة قـــد رأت الوجه المرسوم، وأنها ضمت تلك الأوراق في جديلـــة مـــن الشعر وقالوا إنها كانت تبكي كثيرًا وتجلس على فرع شجرة مانجو وتضم أوراقًا إلى صدرها حســـبوا أنهـــا قصاصـــات ماجدولين التي مزقها أخوها ذات يوم، لكنها رغم ذلـــك لـــم

تخلع سيرًا من الجلد العريض تتوسطه عـين مـن العـاج السحري ستجده مهرة في حافظة جلدية قديمة خبأتها امـرأة لها رقبة الجازية الشريفة تجلس الآن فـي البلكـون وحيـدة تراقب مواء القطط تنتظر إذا عبرت هند كما كانت تجـيء وتلحست في قدميها وماءت فستضم تلك الحافظة التـي بهـا صورة لثلاث فتيات كن يجلسن أسفل بلكون مزخرف بالقلل الفخارية، في الحافظة أيضًا كانت أشياء أخرى أقل أهميـة، صورة الخال وتميمة المحبة. بعض قصاصـات لوصـفات طبخ، المكبوسة وتخزين عصائر المـانجو وعمـل مربـى اللارنج أو طرق صنع الآيس كريم منزليًا، بجانبهـا أسـفل الصوان كانت زجاجات عطر شبه فارغة ومع أنها تبدو لـم تستعمل على الإطلاق فقد طارت مخلفـة حـول فوارغهـا قصاصات صغيرة تبدأ بزوجتي الحبيبة وابنة عمي الغاليـة وحبة قلبي. ومؤرخة بأزمان بدت بعيدة، فوقهم كانت أثواب مفتوحة الصدر وجيبونات من التل المنشي، وأطقم من الستان الوردي خاطتها مس أنجيل، لكن سهلة لم تلبسها أبدًا.

١٠

أسندت رأسها إلى البلكون عندما مرَّ أبو شريك العيادي، وجلس على رماد كان أبوها يدفس فيه بكارج قهوته وقال لها "هل تعرفين طائر القنفس؟". قالت: لا، قال: كان يطير حولنا ونحن نعبر الأرض الصخرية في مسيل الحصباء فيقولون إنه أجمل صوت غنى به طائر. يحمل بيير الأوراق التي يخبئها في حقو من جلد الغزال ويجلس بعيدًا ليكتب، عبرنا السهوب الحمراء ثم حر من الرمل الناعم، وقطعنا الأرض التي غشيتها قوافل ريش النعام والعاج والعبيد من أسوان صوب الغرب مارين بواحة كرر ودنقل وآبار التياهة، لكننا لم نصل إلى واحة "سليمة" – عبر الطريق القديم – كما كان يود أن يصل إلى بربر وشندي وسنار قاصدًا ساحل العبيد أو مناجم الذهب!! قال أبو شريك ذلك ثم مضى، سحب العصا التي تتطوح بالشرك وفرك من عينيه ضباب الأيام البعيدة وقال: "إنه يغرد سبعة أيام بصوت يسبي اللب بعدها يسقط ميتًا، قالت له: من؟! قال : "طائر القنفس".

مشى باتجاه الأثلة التي يسكنها على الربوة أو العلواية كما يسمونها حيث كانت انشراح تختبئ إذا جاء العسكر خلفها يجري خليج منازع بالجثث النافقة وبقايا الذكريات، يجذب الخيوط التي تناثرت حوله ويبصق في كفه ليعيد لضمها في حركة لولبية كي يضمن نحولها وقوتها ثم يقعدها كي تصير دوائر مفرغة كقرص من الشمع تسقط فيه مخالب الجارح ولا تخرج، تتعقد الخيوط أكثر كلما جذبها، كان ماهرًا في صنع الشراك واقتناص سبيب الخيل من ذيول المهاري، وإخفائها في جراية ليرتق عمد الشرك، يصعد إليه هناك بعض الصبية الذين دأبوا التحلق حوله ليحكي لهم عن شرَّافة بنت قبائل البشارية التي أتى بها الجد منازع، أو خشم الموس وعبيد عيلة الشافعي الستة، سيفتح الصغار أفواههم بدهشة وهو يلضم الخيوط ويفردها وقد يسألهم كما كان يسألهم دائمًا، "ابن من يا ولد؟".

الصغار الذين سئموا من أن يرددوا أنسابهم التي ينساها كل مرة، وإذا تذكر فقد يعلق بأشياء لا يحبون تذكرها، مازال يحتفظ بحدة بصره وذاكرة لا يمكن الطعن بها رغم انطمار كل مساحات جلده تحت التجاعيد التي أحكمت دوائرها حول

العينين وأبرزت الأنف النحيل والفم المزموم، يفك أبو شريك في القراطيس الورقية التي يخرجها من سيالة معطفه القـــديم وينتظر أن تفور القهوة على الرماد بعـــد أن يشـــعل نيـــران ركوته، تفوح منها روائح مختلطة محكمة البهـــار، وتتنـــاثر حوله أوعية بلاستيكية فارغة أو ممتلئة بالماء، يعيد إحكـــام القراطيس الورقية ويخبئها في سيالته بعد أن يمضغ مزيـــدًا من أوراق الداتورا ويلف في سجائره، يتقافز الصبية حـــول ربوته باحثين بين القنافذ الشـــوكية والصـــبارية والإشـــنات الجبلية عن أوراق أخرى تتبت هنا، أو هناك، يدخنون معـــه ببطء ويقولون له إذا أرادوا إغضابه "أنت جمّال" ليؤكد لهـــم أنه كان دليلاً للقوافل وليس جمّالاً، لا يجدون فرقًـــا كبيـــرًا فيعيد حكي ما بدأه من قبل من أنه كان يقـــود قافلـــة الحـــج المكية للقصير، كما أنه رافق "دورفتي" مع منازع الكبير في جبانات الفراعين قرب تل المسخوطة حين كانت الطرق إليها مجرد خرابات لا يفكر أحد أن يطأها، وأنه ذهب كثيرًا إلـــى مقرن البحور أو مسيل الذهب. لا يصدقون ما يقول تمامًـــا، لكنهم ينصتون ويلتفون حوله ليعلمهم غرزة الشرك، وطرق ليْ الخيوط وسط التلافيق كي تضيق حول ســـاق الجـــارح

ولا يستطيع الإفلات، يهبطون ويتركونـــه لوحدتـــه يغـــازل أشباحًا قبل أن يسألهم من جديد "ابن من يا ولد؟" ليحاول لضم الأب بالجد ليرسم شجرة لأنساب لم يعد أحد يتـــذكرها، قـــد يقضي يومه ماشيًا بين حوائط النجع حاملاً حربته الطويلـــة التي علق بها خيطًا أطول يتأرجح فيـــه شـــرك كالطـــائرات الورقية التي يصنعها الصبية، يقول إنه يلفلف، لكن الشـــرك لا تسقط فيه سوى أعواد القش من الحقول، أو ينشـــبك فـــي أعواد السيسبان على حواف المزارع فيشد الخيط قاطعًا إيـــاه غاضبًا ثم يحمل خازوقه الفارغ ليعيد صنع شرك جديد.

الخيوط التي بين يديه ستتعقد أكثـــر إذا أراد أن يحكـــي وأن يسمعه أحد، وسيسره كثيرًا أن يمسح لعابه بطرف كمـــه ومكان الأسنان الخاوية، ويملأ فمه بالتفاصيل، يقول ويعيـــد لتستطيع مهرة بنت الشافعي أن تفهم، وسيجد في إسناد رأسه إلى شرفة البيت المعشقة بالخشب والحديد المطروق واقتسام فناجين القهوة مع العمة مزنة التي لا تعير مـــا يقـــول بـــالاً إلا إذا ارتكب خطأً جسيمًا يقتضـــي التصـــحيح، فالشـــافعي لا يمكن عد زوجاته ولا أولاده، والبنت التي ألقاهـــا الجـــد محجوب في النهر كي لا تتزوج فلاحًا ولـــو كـــان التركـــي

الأحمر كان اسمها "عسرانة" وليست "خيالية" – كما يقــول – ومنازع لم يتزوج بنت قبائل البشارية، بل قبائل الشايقية فقد كانوا حراس بلاد البجة وأصهار بني سليم، وتلــك تفاصــيل لم تحرص عليها مهرة التي كانت تراقب فمه الذي يـــرتعش وهو ينسكب بالحكايا، تراه بعد ذلك وهو يتوكأ ليسير باتجـــاه باب دارهم ويختفي خلف السور الذي يحيط بحدائق المـــانجو والبرتقال ومرابط الخيل المهجورة، على خليج الرمل الناعم الذي يتجمع عليه الشباب في الغروب ويمزجون عبق دخـــان مجلسهم برائحة القهوة المغلية. يتوســـدون أكـــواعهم وهـــم ينظرون إليه. يسير وطرف الخيط المعقـــود فـــي عصـــاته يتطوح ذات اليمين وذات اليسار كأنه شص مـــن الخـــوص يخجل أن يصطاد به الصبية الأسماك فـــي خلـــيج منـــازع، يقترب ببطء ويتفرس في وجـــوهم ســـائلاً بجدِّيـــة "عـــرب ولا فلاحين؟".

الصبية الذين سئموا ترديد أنسابهم قد يضـــحكون وهـــم يدفسون بكارج القهوة أو يذيبون فيها قطع الأفيون وينفخـــون في الرماد ويقولون "الله يرضى عليك يا جد شوف ســـهراية ثانية".

الولد الذي ناوله فنجان القهوة كان له لون أسمر داكن يرف في ثوب أبيض ويثني عمامته على رأسه. تلقفه أبو شريك بنظرة فاحصة، لم يقل له ابن من يا ولد، باغته بسؤال أكثر حدة "أنت من عبيد منازع ولا الشافعي يا ولد؟!"، لم يقل الشاب الوسيم شيئًا، نفخ مزيدًا من الدخان وساد الارتباك ثم الصمت. أبو شريك الذي واصل تساؤله بإمعان أكثر "أنت ابن مبارك العبد؟" أحس الفتى بتوتر أكثر، زاد من حدته صمت الجميع قال "جدي مبارك" بلع أبو شريك ريقه بفخر وهو يحاول التذكر بالضبط "جدك خشم الموس يا ولد، جاء به منازع من المجرى التحتاني قرب مقرن البحور، كانوا عشرة من العبيد أسكنهم غرب "أرض البداون" كان خشم الموس مثلك يابن مبارك له عيون ثعلب صغير. ضحك الجميع من حوله ولكن الفتى لم يضحك، "كان منازع يقول له دائمًا يا عبد لك ريحة الثعالب" ضحكوا أكثر ثم ساد الصمت فأكمل:

– وماذا يسوي أبوك يا ولد مبارك؟.

– بالبيت معه ضيوف يبيع لهم صقورًا.

– بعقال يا ولد أم حضر؟!

- كوايتة يا جد.
- وكم صيدة وقعت في ملفافكم يابن مبارك هذا العام؟!
- ثلاث يا جد.

هز أبو شريك العيادي رأسه وكفى فنجان قهوته على الرماد، كان يريد أن يتحدث أكثر عن خشم الموس، وروضة، وانشراح وقوافل العبيد التي تأتي من "هرر"، لكنه أحس أنه يجب أن يمضي، تسند على الجدران بين الحوائط الخرسانية تائها، لا يعرف كيف يعبرها ليصل إلى الأرض الرملية، والربوة وأثلته العجوز، البيوت الخرسانية التي اصطفت عالية لا تكشف شيئا، ليس وراءها سوى الطريق السريع الذي تمضي عليه عربات طائشة لا تقف لدليل قوافل قديم لتسأله عن بئر خور السبوع أو أحراش أرض البجة.

دار حول نفسه أكثر وتسنَّد على الكثير من الجدران ليعيد رسم معالم لم يعد لها وجود، كان الدوار وحده هو الذي يرافقه، منذ عدة ليالٍ وهو يشعر به كشيء يحسه ولا يفهمه، صار لا يرافقه بل يقتحم ذاكرته ويدفعه للإيمان بأنه عاش تلك الأشياء التي تمر به من قبل، كان قد سمع كثيرًا عن رجال بيض يحتسون القهوة في وقار ويسألونك عن أحوالك

ثم يختفون كالسراب كـأنهم يـذوبون فـي ذلـك الـوهج الصحراوي الأخاذ، صار مستعدًا لأن يتبادل مـع أشـباحه الحكي ولا يزعجهم، لكن الذي يرافقه لم يكن أكثر من رائحة لمزيج من البوتاس الذي تغسل به النسوة مختلطًا برائحة فطر أو كلس، تلك الرائحة التي هي رطوبة قبر قـد فـتح لتـوه ليضعوا فيه وافدًا جديدًا، بدأ الإحساس بأنه عاش كـل تلـك الأحداث من قبل يطارده أكثر، ولا يجد سوى أن يطلق ساقيه لتسير بلا اتجاه مصاحبًا هذا الدوار. يقـف فـي منتصـف الشوارع بعد أن يفقد اتجاهه، يقف طويلاً بجـوار الحـوائط ليقرر أن دخول هذا الشارع سيفضي به إلى الجرف العـالي حيث تسكن العمة مزنة، أو يعرج منه إلى تلال اللقايا حيـث معسكرات البعثة الألمانية وهل يجد في نهاية الطريـق دوار آل منازع أم بيوت أولاد الشافعي؟! يدور حول نفسه ويعـود ليسأل المارين، "بيت من هذا يا حلوة؟!" و "دوار مـن هـذا يا شيخ العربان؟!" وعلى الرغم من أنهم يجيبونه بالتفصـيل عن أنسابهم وأصحاب الأبواب المغلقـة فلـن يسـتطيع أن يضعهم على خرائطه القديمة لإقطاع البدوان، تلـك الأرض

التي كان يعرفها منذ كانت مرمحا للرمال ووسط بشر من المفترض أنه يعرف أسلافهم حتى الجد الأول.

شد أبو شريك خيوطه التي توشك على نهايتها وقال لها إنهم أبحروا من أسيوط غربًا مرورا ببئر خور السبوع، في اليوم الأول، كان ماؤه المالح لا يستطعيون التزود به، قافلتهم كانت خمس ركائب حمّلوها بالمؤنة، ناقته وحدها هي التي كانت تحمل صناديقه الكثيرة، بعد ثلاثة أيام من صحراء قاحلة عبرها آلاف المرات، كان يعرف جحور الأرانب وأماكن الهوام، وعد كل أشجار الغردق على ربواتها، ركض خلف الغزالات وتشققت قدماه من المشي بها، تبعثرت الطرق مع هزج الجمال وكان الغد لا يكشف سوى رمال حمراء قانية، كانوا يفترضون أنه في اليوم الثالث بعد عبور وادي زيدون بأحجاره الصلدة التي لا يشقها سوى ممر ضيق سينبسط الأفق عن الأرض الخفيضة وتظهر آبار التياهة بمائها الرائق ليتزودوا منها، أعادوا رسم خرائطهم، التلال الرملية التي انشق عنها وادي زيدون لم تنته كانت كثبانًا حمراء تتعثر فيها أقدامهم كبحار من الدقيق الهش، والأرض

كلما أوغلوا ازدادت جفافًا، والدواب الخمس سئمت من البحث عن عشب يصلح للمضغ.

"بيير" الذي اكتفى بالانكفاء على أوراقه ليرسم أو يكتب كلما خيّموا لم يوافق على فكرة العودة، الأرض الرملية التي اندثرت فيها آبار التياهة كشفت في اليوم الرابع عن حصباء حجرية بدءوا يرون على حصواتها آثار دم وقيح ينز من أول النوق التي تركوها خلفهم وعندما عادوا كانت جثتها النافقة إحدى العلامات التي تعرفوها، الصناديق التي انتقلت إلى سنام آخر كان يجب تقليصها بإلقاء أكداس الملابس التي في جرابه وتمزيق عدد من لوحاته والتخلص من أدوية الصداع والإسهال والقيء بعد أن صار العطش هو المرض الأقوى والذي تأهب لأن يفتك بهم جميعًا، لكن الذي أرغمهم على العودة لم تكن النوق بل كان الطريق، فرغم أن البوصلة ساهمت في تحديد اتجاهاته بعد أن رصدوا الشعري اليمانية تقطع السماء عرضًا، والنثرة تغيب باتجاه الغرب، ولكن آبار التياهة لا تظهر ولا مسيل الحصباء يكشف بئر السلطان كما كانوا يتوقعون، ولم يعودوا يرون سوى مجرد سهوب حمراء برمال شديدة القسوة تطير وتركل في حدقاتهم، اضطر "بيير"

إلى إلقاء نظارته على الأرض بعد أن حولتها الرمال إلى خدوش لا منتهية يصعب الرؤية من خلالها، اكتفى بإخفاء وجهه تحت اللثام وشد حواف العقال على رأسه واستبدل حذاءه الرياضي بخف من سيور الجلد، أعادوا حساب ليالي السير. النثرة تأرجحت باتجاه الشمال والجبار في الجنوب وبدت نقرات الظباء جلية تكشف عن آثار ظبية في صحراء شاسعة، استعاذوا بالله من نحس الطالع وقالوا إنها نذير فراق، لكن سحابة الغبار شغلتهم عن العرق الذي كان ينز من جبينه والذي تحول إلى سخونة لا تكفيها الخرق المبللة، نصبوا له صندوقه الخشبي على ظهر الركوبة وأحكموا الحبال حوله، كانوا لابد أن يعودوا بأقصى سرعة، لا لينقذوه بل لأنه ربما نالهم المصير نفسه والقرب تفرغ واحدة تلو أخرى.

يتمايل الركب وسط هنهنة خفيضة تختلط مع هذيانه الذي أضحى مسموعًا، لكنها لما صارت فوقهم تمامًا تلوح في السماء بهيئة نجمة تركض وخلفها صغارها الواجفة. قاموا فوسدوه الأرض الرملية حيث كانت هناك آبار يقال لها آبار التياهة كانوا يمرون عليها ذات يوم.

في الحقو لم تكن سوى بردية اشتراها من الجد قالوا إنها ظلت معلقة في عمود خيمة مـــا لتفــزع رواد الخـــلاء، إذا فتحوها فقد يجدون بيوتًا وطرقات وعصافير وبطات تســـير في النهر، أو راعيا يعبر بقطيعه السهوب، أمًّا ترضع طفلها على الضفة الأخرى ، تمساحًا يمد رأســـه باتجـــاه مركـــب الصياد. ضفدعًا طينيًا رخوا يدفس رأسه في بيـــات طويـــل، حين تجلس مهرة لتفك رموز البردية، سترى راعي القطيـــع الذي يجلس على ضفة النهر يشبه جدا من أجدادها كان يسير وسط التلال التي لها لون المَغَـــرَّة الصـــفراء أو المخضـــبة بحمرة الشفق، وجمال تعبرها كسفن بعيدة تلوح للخـــلاء قـــد ترى آثار ظبية واجفة، أو هَيْكَل بعير نافق، وربما رماد قهوة كانت لها روائح بلاد بونت البعيدة.

ميرال الطحاوي

– كاتبة مصرية تعمل مدرسًا مساعدًا بقسم اللغة العربية جامعة القاهرة.

– أصدرت عام ١٩٩٥م مجموعتها القصصية الأولى "ريم البراري المستحيلة"، عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

– عام ١٩٩٦م أصدرت روايتها الأولى (الخباء) عن "دار شرقيات" في القاهرة، وأعيد طباعتها في "دار الآداب" بيروت ١٩٩٩م، ثم صدرت طبعة شعبية منها في "مكتبة الأسرة" القاهرة عام ٢٠٠١م، وحازت على جائزة أفضل عمل روائي عن هذه الطبعة، في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ٢٠٠٢م.

– تم اختيار روايتها "الخباء" كأفضل عمل روائي عام ١٩٩٦، وترجمتها الجامعة الأمريكية في القاهرة إلى الإنجليزية وصدرت بالفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية واليونانية.

– صدرت روايتها الثانية "الباذنجانة الزرقاء" عـــن "دار شرقيات" القاهرة ١٩٩٨م، وأعيد طباعتها فـــي "دار الآداب" ٢٠٠٠م، بيروت، وفازت بجائزة الدولة التشجيعية في الآداب عام ٢٠٠٠م، وترجمت إلى الإنجليزية والألمانية والإيطالية.